ثِمار الذهب

(حازت هذه الرواية الجائزة العالمية للأدب، للعام ١٩٦٤)

تأليف: ناتالي سارّوت

ترجمة: د. ريم منصور الأطرش

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٨م

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

ثِمار الذهب

العنوان الأصلي للكتاب:

LES FRUITS D’OR

ثمار الذهب / تأليف ناتالي ساروت؛ ترجمة ريم منصور الأطرش. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٨م .- ١٤٨ص؛ ٢٥ سم .
(المشروع الوطني للترجمة؛ الرواية العالمية١)

١- ٨٤٣ ف س ا ر ث
٢- العنوان
٣- ساروت
٤- الأطرش
٥- السلسلة

مكتبة الأسد

- أوه اسمع، أنت فظيع، ربما كان بإمكانك بذل مجهود... كنتُ جِدّ منزعجة...

- منزعجة؟ ماذا تبغين أيضاً؟ لماذا أنت منزعجة بحقّ السماء؟

- كان هذا فظيعاً حين أَخرَجَ تلك البطاقة البريدية... النسخة المُقلَّدة... لو كنتَ رأيتَ هيئتَكَ وأنتَ تأخذها... ما إنْ رمقتَها بنظرة، حتى مرّرتَها لي دون مشاهدتها... لقد بدا أنّه جُرِح في العمق...

- جُرِح في العمق، إذاً، كما تقولين...جُرِحَ عميقاً لأني لم أنتشِ كما فعل الجميع، ولأني لم أخرّ ساجداً من الإعجاب...

يخرّون إعجاباً، فتلامس الوجوه الأرض، في الوقت نفسه، حالة النشوة عندهم، الجوقة، آهات الإعجاب البلهاء... تزامنٌ رائع... هم مدهشون... اليد المغروسة في فتحة السترة تخرج... لكنْ كان يجب الاقتناع مثل الطبيب الذي لا يزال متردِّداً في التشخيص، فيرى انبثاق البُثْرة الصغيرة في حينه، الطَفْح الجِلدي الخفيف، كان يجب الاستمتاع حين أخرج ذلك الشيء من الجيب الداخلي لسترته، هناك، ملتصقاً تماماً بقلبه، دافعاً به، بعين نهمة، متحرِّقاً شوقاً لمعرفة أثره على الحضور... أرأيتم هذه... لوحة كوربيه[1] تلك... رائعة. تمعّنوا فيها...

---

(١) غوستاف كوربيه (١٨١٩ -١٨٧٧ م) أحد رواد المدرسة الواقعية في الفن. بدأ يتعلّم الرسم من خلال المراسم الحرّة في سويسرا، حيث كان يرسم نماذج للموديلات ورسومات تمثّل الطبيعة، كما أنه زار متحف اللوفر ليقلّد الأعمال الفنية التي يحتويها المتحف. (المترجمة).

- إنه أمر غريب. هو مُسَلٍّ. تعرفين أنها تماماً النسخة المقلّدة عينها التي لديهم جميعاً في بيوتهم، التي يحملونها معهم جميعاً في هذه اللحظة...

مثبّتة في الجدار بالدبابيس على الورق الرمادي المزيَّن بالزهور الوردية فوق المكتب بهدف المساعدة على التقاط الإلهام، المنزلق من الفرجة بين الإطار التزييني والمرآة المتوضِّعة فوق المدفأة، فجأة... معجزة... هي عينها... ومظهرهم... هذا المظهر البادي عليهم... العفّة. هو فخور. هي لُقيتي. هي خَلْقي. كنزي الصغير السرّي. لا يفارقني أبداً. ولكنْ، هاكم، إليكموه، فأنتم جديرون بمشاهدته... أستطيع إطلاعكم عليه دون خشية: فليس ثمة من تدنيس، ولا يوجد أيّ أوساخ. هاكم، فمعكم أتشاركه. إنه هبة. هو مُلكي الأغلى...

يهتزُّ رأس ضخم بعينين جاحظتين، وتمتطّ شفتان سميكتان... ينخفض الصوت، فالاحترام يسحقه... كوربيه. لا أحد سواه. هو الأعظم. أنا أقول هذا. أنا لا أخاف من قول هذا: إنه العبقرية الأعظم. شكسبير[1] وهو. أنا أقول هذا دوماً: شكسبير وكوربيه.

- أَوَتعتقدين – ارتفع صوته – أَتعتقدين بأني سوف أتورّط في حركة تحجز حريتي الشخصية؟ لكني أحتقر تماماً مسألة تكديره. لا أحبّ أن يخدعني أحد. أن يستغبيني أحد.

- هنا أنا لا أفهمكَ. لم أستطع أن أفهم قط لأنك تأخذ هذا الأمر على محمل الجدّ إلى هذا الحدّ، مثل هذه الأمور. أنا جِدّ خائفة من التعامل معه خاصةً. لكنْ حتى من التعامل مع أيّ شخص. أؤكّد لكَ، لا أدري أين أتموضع. يبدو لي دوماً...

---

(١) وليم شكسبير (١٥٦٤–١٦١٦). شاعر وكاتب مسرحي بارز في الأدب الإنكليزي. (م).

- نعم، لقد تسلّيتُ برؤيتكِ... مظهر الوقار هذا، وانحناءة الإجلال التي أدَّيتِها. كما لو أنكِ أمام القربان المقدس... صوتكِ... أوه نعم... إنها جميلة... أين توجد؟ في أيّ متحف؟ آه نعم... إنها رائعة... لقد سلّيتِني... لم تكوني تمعنين النظر في شيء.

- لا، لا شيء. لكني مهذّبة. كان من الممكن أن أكون أقلّ تهذيباً لو كنتَ أنتَ... لكنّ هذا يزعجني جداً، لا أستطيع...

- حسناً، تصوّري أني لا أجدكِ لبقةً تجاهه، أنتِ مخطئة. تصوّري أني، أنا، ما عندي هذا الازدراء...

- ازدراء؟ لكنكَ مجنون...

- نعم، تماماً. ازدراء. يجب مراعاة هذا المسكين. فتحذلُقه يسبّب له ألماً شديداً... سذاجته وانقياده... ينبغي عدم المَسِّ، فهو مؤلم. ينبغي عدم الملاحظة، فهذا جِدّ محرِج. إنه هشّ جداً، هذا خطر جداً... تتصرّفين كما لو كنتِ مع المجانين. فضلاً عن ذلك، معه، كل الناس يفتعلون هذا الرياء. تذكِّرونني جميعاً بمسرحية بيرانديلّو[1] تلك، التي كان الممرّضون فيها يؤدّون دور المتزلّفين[2]. كلّ كلمة منه – ويجب أن نقع مغشياً علينا. كلّ حُكم – وليكن الأكثر غباءً – علينا الموافقة عليه وعيوننا منكَّسة. تتفحّصنا عينه، راصدةً التناقض... فلا تتحمّله. أيّ

---

(١) لويجي بيرانديلّو (١٨٦٧– ١٩٣٦)، كاتب ومسرحي وشاعر إيطالي، حصل على جائزة نوبل للآداب العام ١٩٣٤. **(م)**.

(٢) المقصود هنا، مسرحية هنري الرابع (١٩٢٢) لِ لويجي بيرانديلّو. فالبطل، الذي يعتقد نفسه بأنه الملك هنري الرابع، محوط بشخصيات «مرائية»، تتزلّف له. **(م)**.

محاولة للتمرّد تُكبَح مباشرةً منكم جميعاً... كلهم مثلكِ: لقد آلَمني هذا... هربتُ توّاً من حرّ الهموم... وأنا بالطبع، لستُ حرّاناً. هي أمور لا أحبّ التلاعب بها. وليس السبب هو كوربيه. الأمر لا يتعلّق به. لقد حاولتُ رؤيتها، أعمال كوربيه الشهيرة، فذهبتُ إلى هناك وقتَ الغداء حتى لا ألتقي بأحد. كي أشاهدها مرتاح الفكر والبال. حسناً، لم يحالفني الحظ. من المستحيل التملّص... على السلالم... كنتُ أصعد السلالم وكان هو ينزلها، دولود المسكين، تعرفينه، ذاك الذي يكتب تلك المقالات السخيفة... ويخطئ دوماً... هزّ إصبعه... آه سترى هذا... يا له من معرِض، هاه؟ آه، أنتَ هي زيارتك الأولى؟ سوف ترى. كلّ شيء من الطراز الأول. إنه رائع. مدهش. لكني أوصيكَ، بشكل خاص... في القاعة الصغيرة في آخر المعرض... لوحة صغيرة جداً... في الأسفل، إلى اليسار... تلك اللوحة، كانت اكتشافه الخاص والأثير لديه، هي ما جعله مميّزاً... رأس كلب[1]. سوف ترى. لن أقول لكَ إلا هذا...

- لكنهم، في الواقع، يحبّون هذا... أؤكّد لك ذلك. يرغبون بالتشارك... أنا أجد هذا، بالأحرى، مؤثّراً.

- نعم، أعرفها، هذه الرغبة، تلك الحاجة إلى التشارُك. نعم هذا جميل جداً، وهو جيد جداً. لكنّ دولود المسكين، سوف تضحكين...

---

(١) على الرغم من أنّ كوربيه قد رسم لوحات جميلة للحيوانات، وخاصةً لوحة كلاب الصيد، العام ١٨٥٦، غير أنه لم يرسم هذه اللوحة المذكورة هنا، بل تخيّلتْها ناتالي سارّوت لإضفاء نوع من الكوميديا على الموضوع. (م).

يحصل التعرّف إلى الآخر من المرّة الأولى. فهم، بالتأكيد، بين أشخاص من العالم نفسه. النوادي المغلقة نفسها، الدوائر نفسها. المناوِرون والمانحون أنفسهم. يضعون الزهرة نفسها في عروة السترة، يرتدون لفافة الساق[1] نفسها، وصدرية الساتان نفسها، يضعون على العين النظّارة الأحادية نفسها. لكن هناك، هذا التفصيل البسيط، إشارة الأناقة هذه التي لا تكاد تُدْرَك... لمسة صغيرة جسور وخفيّة... ضمانة للذوق الأكثر ندرةً... أوه هذا لا شيء... تُرّهات... ولكنْ إليكَ الأمر، فلنحتفظ به سرّاً لنا فقط... هيّا، تستطيع فعل ذلك بتوصية مني... لكنْ، لا مطلقاً، أرجوك... هناك، في آخر القاعة، إلى اليسار...لا أحد يلاحظها، لكني أوصيكَ بمشاهدتها. إنها في غاية الرهافة، حتماً، سوف تعجبك: رأس كلب.

- رأس كلب. هل رأيتَ اللوحة؟ - أنا أجدها رائعة. – أجد هذا روعة خالصة. – هذا الشيء الصغير وحده دون غيره...

تجتمع فيه... المتعة... الاندماج، انصهار الأرواح... أشعر بأني أنا أيضاً باستحواذه عليَّ... دغدغة رهيفة... تمسّني، تتملّكني...هي تعويذة... نشوة... هيا، كلّنا معاً، بشكل أقوى أيضاً. أقوى. أبعد. أنا الآن أتقدّم إلى الأمام، أجتاز كلّ الحواجز، أُفلِت كلّ المكابح... إلى آخر الدرب تماماً... لا شيء يوقفني... لا خشية خسيسة من الهزء، لا همّ جامداً من الخجل. وأكثر. إلى آخر الحدّ المتطرّف. أطلق العنان لنفسي... ها هو ذا. يغرق في قلق عظيم، يصيبه مَسّ إلهيّ، إنه يتشنّج، تنقلِب عيناه، الزّبد على شفتيه، يتدحرج على الأرض، ممزّقاً ثيابه... بالنسبة لي... يبالغ في الاعتراف

(١) في الماضي، كان الرجال يرتدون هذه اللفافة من القماش أو الجِلد لحماية أرجلهم. (م).

«بخطيئته العظيمة»... بالنسبة لي، أنا لا أخشى من قول ذلك... لا شيء أسمى. كوربيه هو الأعظم. شكسبير. انتفاضة أخيرة. ينحني خضوعاً كما قوس الدائرة: شكسبير وكوربيه.

- هاكِ... كلّ هؤلاء الناس يسبّبون لي القرف. انقيادهم الساذج يقزّزني. سئمتُ من هواجسهم، من الهيستيريا التي تنتابهم. تلك المزايدة... إنها لَمَنْ سوف يعبّر بقوة أكبر، بأبعدَ من غيره. يجب الاستماع إليهم... كلّ رسّام معاصر أو من الماضي لا يدانيه في مستواه الفني. إنه العبقرية الأعظم لكلّ الأزمنة. وبكلّ جدّية، كما هو واضح. لا أحد منهم يفكّر في الضحك. لم يعد لديهم أيّ تحفّظ، لا خوف لديهم من الهزء، فضلاً عن أنّه لا وجود لَمَنْ يمكن أن يُهزأ منهم! فلقد اختاروا الاتجاه الصحيح، وتالياً يستطيعون أن يكونوا مرتاحي البال. فليتجرّأ أحد منهم ويحتجّ على ذلك... أرأيتِ كيف حدجني بنظرة؟ لكنْ حتى لو كنتُ متيّماً بـ كوربيه... فضلاً عن أنّ له لوحات رائعة... ما كنت لأقول شيئاً عنه... بيلّوك[1] الذي يبالغ في مديح أسوأ الأعمال الفنية التي لا قيمة لها... مازيّ... معه لا يفوّت الفرصة أبداً... إنه يرتكب أشنع الخطايا، فهذه من اختصاصه... لكنْ، لا تعليق مطلقاً حول هذه الأمور. صمت. فهي تُنسى. ويل لَمَنْ قد يخطر له تذكيره بذلك... غليظ الفكر والجاهل بالفنون، كما ترينه، الذي قد يأتي بمظهر بريء

---

(١) هو جوزيف هيلاير بيير رينيه بيلّوك **(١٨٧٠ - ١٩٥٣)**، كاتب ومؤرّخ فرنسي وبريطاني. كان ملتزماً سياسياً. كتب الشِعر الديني والحكايات ذات المغزى الأخلاقي. **(م)**.

متسائلاً: لكنْ مازيّ، كيف يصنع رأيه؟ تذكرون حين كتب بأن هذا الذي يرسم اللوحات البشعة... إذاً، «تفُه»! فليسقط هذا الحمار. فظاعة. خدش للحياء فظيع. أتُعرَض مثل هذه الأشياء؟ مطلقاً. حتى أنا، تجدينني جدّ مخيف، جدّ قاسٍ... لكني قد لا أجرؤ على ذلك... قد يكون هذا في غاية السهولة. أنا أيضاً، في الحقيقة، أنا مثلكِ، أصاب بالشفقة أكثر من اللازم.

- تصاب بالشفقة، أنتَ؟ أنا نعم، أصِبْتُ بالشفقة حين اتّخذتَ هذا المظهر... كان يبدو عليه كأنه شخص استسلم للآخر... شخص ضعيف... بدا لي أنك كنتَ تستغلّ الوضع... لا أدري... مثل البهيمة الفظيعة... حقاً، أؤكّد لكَ ذلك، كنتَ تستغلّ الفرصة، من موقع المتعالي... لقد أوحى إليَّ بالشفقة، فجأةً، بشكل مريع...

هو شديد العذوبة، مرهف، خوّاف قليلاً. كان شاعراً، ربما بشكل غامض، بعدائية، بتهديد، باذلاً ما في وسعه، مُجهِداً نفسه، مُسترسِلاً من أجل إخماد العداء، من أجل استرضاء الآخرين، مانحاً كلّ شيء، بل أيّ شيء تريدونه... هذا الشيء ربما، أو ذاك؟ أضعه أمامكم، هنا، أمام أقدامكم... كلّ ما رأيتُه، كلّ ما أعرفه... من أفلام، مسرحياتٍ، رواياتٍ، حفلاتٍ موسيقية، معارِضَ فنيّة... أيناسبكم هذا؟ هل يمكن لهذا أن يهدّئكم؟ ربما، سوف أتمكّن هكذا من إبعاد... ربما، يكاد هو أن يجرؤ على الأمل بذلك، سوف أتمكّن، بالرغم من كلّ شيء – وهذا جِدّ مؤثّر، ذلك التشبُّث الطفولي، تلك السذاجة – سوف أتمكّن من التوصّل إلى جذبكم، إلى سحركم؟... ابتسامة حنون تُمحى فجأةً، نظرة فيها تعبير عن الثقة، عن

الصداقة من وقت إلى آخر تزول، تكمد، تغطّيها أبخرة خفيفة، مصنوعة من القلق، من الدهشة... والبهيمة الهادئة، فاقدة الحسّ، تنساب ببرود إلى الملاطفة – لا يمكن عمل شيء لجعل قلبها يرقّ... أخيراً – هذه الإيماءة... اليد منغرسة في فتحة السترة... تُخرِج هذا الكنز... الطلسم... الإشارة السرّية... نحن إخوة، أليس كذلك؟ أعرف ذلك... أمنحكم القربان المبارك. أجلب لكم الخبز والملح...

- كنتَ فظيعاً. لم تكن مهذّباً. تلك هي حاجةٌ لمعاقبة أدنى إشارة الخضوع، فرض الاندماج، نقاء مطلق... كان متكدّراً، مجروحاً... كنتُ أتألّم حين انكمش...

- لكنه لم ينكمش. أو بالأحرى أجل، ربما انكمش. ازدراءً. تقزّزاً. كنتِ تسلّيني جداً لدى محاولتك تدارك «هفوتي»، لمسامحتي. أنا، كنتُ أجده بالأحرى مُسبِّباً للكدر... حين غيّر الموضوع فجأةً، حين شرع يتحدّث عن العطلة...

- بالطبع، فأنتَ أظهرتَ رفضكَ لما يمنحكَ إيّاه. لقد رفضتَ التآخي، فحاول البحث عن شيء آخر...

- ها، ها، شيء آخر. بالتأكيد. شيء آخر. في متناوَلي. الرحلات: كانت تناسبني. هو، أكثر قليلاً، وحتى يصبح في متناولي، يكون قد شرع يتحدَّث معي عن طراز السيارات... لكنّ ذلك أرعبكِ... لم تستطيعي تحمّله...

- لا، لم أستطع قط...

تنفتح الأرضية. شِقّ هائل. وهو في الجهة الأخرى، ها هو ذا يبتعد دون التفات... يجب الصراخ، مناداته من جديد... ليلتفتْ... ليعُدْ... لا تتركنا... نحوكَ، عندكَ، على ضفّتكَ، ساعدنا، نحن آتون... التقط ما أرميه لك، هذا الحَبْل الذي أدفع به إليك كي تسحبنا، التقطه، أتوسّل إليك... محاولة أخرى فقط، سوف ترى، ثقْ بنا مرّة أخرى... قل لي... هل قرأتَ؟... ما رأيكَ به؟

- كان ذلك مضحكاً جداً حين سألتِه – كنتِ تجدين أن المتعة لم تدم كفايةً، كان ذلك حقاً استفزازاً – حين حدّثتِه عن ذاك الكتاب...

- ثمار الذهب...

- نعم، هو ذاك. كنتُ أتساءل فيما لو أنه اختبار، امتحان تريدين منه عمله لتري إنْ كان... حقاً... هذا الكتاب... كان يجد... ولكنْ ماذا كنتِ تتصوّرين؟

- لا شيء البتّة. لا يهمّني رأيه. أردتُ فقط تهدئته. عودته إلى وضعه الطبيعي.

- آه لكنّ الأوان كان قد فات. لم يُخدَع. عدم تحفُّظي حين مرّرتُ لكِ هذه النسخة المقلَّدة من دون أن أنبس ببنت شفة...هذا ما أحسّ به كأنه شوكة في حلقه. فات الأوان. كان المنظر مُهلِكاً من الضحك لرؤية هذا المظهر البارد جداً الذي استخدمه ليقول لكِ من طرف شفاهه: «نعم. حتماً. هذا جيد جداً». ماذا كنا ننتظر؟ أليست الصرخة الأخيرة؟ ألم يكنْ ثمة من مقالة لِـ بيرنييه؟ لِـ رومان؟ ماذا كنتِ تتوقّعين منه أن يقول لكِ؟

- آه، ليس هذا... أنتَ لا تستطيع فهم الموضوع... كنتُ آمُل بإجراء المناقشة... لم أكن أتحمّل أن تصبح كلّ الجسور مقطّعة...

في ساعات، باذلين مجهوداً كبيراً بشجاعة، وجوههم باسمة، تكاد تكون متشنّجة، عيونهم دون حراك تلمع فيها نقطة مضيئة، شعلة لا يكفّون عن تغذيتها بقواهم المجتمعة معاً، حيث يرمون فيها، غارفين بملء أيديهم، بملء المجاريف، ولا مجالَ للضَّنّ، كلّ ما يجدونه، كلّ ما لديهم، ثرواتهم، كنوزهم – يبذّرون دون حساب. لكنْ للحظات، دون أن يحتاطوا للأمر، ترتجف الشعلة، تجنح، تنطفئ، والآخر الذي لا يزيح عينيه أبداً عنها، تتجهان نحوها كأنّ شيئاً لم يكن، مندفعاً دوماً، أو متأكّداً من رؤيتها تشتعل من جديد، عارفاً بأنه لن يُترَكَ هائماً دون نجدة، ليضيع في الظلمة، مجتهداً كي لا ينحرف، وكي يبقى في الاتجاه الصحيح، هو الآخر متوجّهاً نحوها، دون تفكير، يتقدّم ببسالة...

وها هي ذي تلمع من جديد... انتفاضة، جهد بسيط وها هي ذي تنشط من جديد، كانت تلك لحظة تعب فقط، سهو خفيف، لا تخشَ شيئاً، هي ما تزال هناك... «نعم، نعم، أنا أسمعك، لك الحق في ذلك، هذا تماماً ما كنتُ أفكّر فيه... أنا أيضاً، أحببتُ ذلك كثيراً... ربما كانت تلك هي النهاية فقط... كنتُ أتساءل... أليس كذلك؟ ألا تجد معي ذلك؟ لا بُدّ أنّ لك الحق في ذلك... سوف أعيد القراءة من جديد، أعيد النظر...» ثمة شعور جزئي بالإنهاك، بالإيلام، لكنْ يجب المتابعة وليكنْ ما يكون، يجب الوصول مهما كلّف الأمر... تشجّع... ابذل مجهوداً أكبر... اقتربتْ... أصبحتْ قريبة جداً... هاكَ... تنغرس اليد في جيب السترة الداخلي، تسحب النسخة المقلَّدة، تمتد بها... وهذه

الزوبعة المفاجِئة... هبّة الريح القوية تلك... ينطفئ كل شيء. ليل حالك. أين أنت؟ أجبني. نحن هناك نحن الاثنين. أنصت. أنا أنادي، أجبني. لأعرف فقط بأنك لا تزال هناك. أصرخ في اتجاهكَ بكلّ ما أوتيتُ من قوّة. ثمار الذهب... أتسمعني؟ ما كان رأيكَ به؟ جيد، أليس كذلك؟ ويجيب الصوت الكئيب ... «ثمار الذهب... إنه جيد...»

شوارع مقفرة. يُسمَع فيها وقع الخطوات. واجهات مظلمة. لكنه الحظ، إنه القَدَر، إنه المصير الأنسب، هذه النافذة، نافذته هو، التي لا تزال مضاءة... هيا، فالمصير السيئ في انتظاري... يُفتَح الرتاج، ها هو ذا ضوء السلالم المؤقّت، الدَرَجتان، الباب الزجاجي، الدَرَج، أربع فأربع، لكنْ لِمَ أربع فأربع؟ ما هذه الفكرة... التي له دوماً؟... يجب القول اثنتين فاثنتين، جيد جداً، لا تفكّري في شيء، لا تفكّري، اثنتين فاثنتين، واحدة فواحدة... يمتدّ الإصبع إلى زرّ الجرس. اضغطي. رنين. لقد انطلق. تقترب الخطوات... لكني لا أريد، توقّفْ... يُفتَح الباب... تتصلّب بكلّ قواها، تتشبّث...

«لا شيء مهم، لا تفزع، رأيتُ الإضاءة، فخلتُني أستطيع... نسيتُ تلفيعتي... قفّازيَّ... لا بُدّ أني تركتُ...» لا، فات الأوان، من المستحيل التراجع. لكنْ أرجو ألا يُدفَع بي هكذا، أن تُترَك لي لحظة أخرى كي أتمالك نفسي، كي أتّخذ قراري، ها أنا ذي، أُرخي أصابعي، أنحني من فوق الفراغ، أنتزع نفسي، قدمايَ تنفكّان عن الأرض، أترنّح... «ها هو ذا... ليس هذا... عدتُ لأسألكَ... سوف تضحك... إنه جنون... لكني أريد أن أعرف. هذا الأمر يعذّبني، أنتَ تفهمني. أريد منكَ أن تقول لي... قبل قليل، حين أجبتَ: ثمار الذهب، نعم، إنه جيد... بنبرة بدتْ لي... أتوسّل

إليكَ، قل لي، لا تستطيع الرفض. أنتَ الوحيد الذي تستطيع إعطائي... يلزمني ذلك مهما كلّف الأمر... لقد عدتُ...»

في الصالة المشتركة ثمة نساء شُعُث ذوات خصَل طويلة، قاسية الملمس يضربْنَ صدورهنّ ندماً على «الخطيئة العظيمة»[1]، مغضّنات الوجوه، يضحكْنَ، يرفعْنَ تنانيرهنّ، يُظهِرْنَ أفخاذهنّ الرمادية، يهززْنَ أردافهنّ، نساء، ممدودات الأذرع، وسط الهرج والمرج، من دون حراك، جامدات كما في لعبة التماثيل، مُنْفَعِلِيّة الشيزوفرينيا، صَرَع، هيستيريا، صدرية للمصابين بالأمراض العقلية، تَتابُع الحالات السيئة الفجائية، ضربات، حرّاس متوحشون... لكنْ لا بأس بذلك، هذا لا يهمّ، أنا لا أخاف، أريد منكَ أن تقول لي... كنتَ مكدّراً، أليس كذلك؟ اعترفْ. أجبني. هل ابتعدتَ عنّا؟ اعتقدتَ... ماذا اعتقدتَ؟ لا بُدّ أنكَ اعتقدتَ مثلي... أجبْ، عليكَ أن تجيب. أنتَ لا تقول شيئاً. آه السكوت علامة الرضا... كما ترى، أنا أعرف ذلك فعلاً... فكّرتَ بأننا وجدنا أنكَ... كلّ شيء يحترق من حولي، جسدي كلّه، محترق ووجهي أيضاً. ولكنْ يجب عليَّ الانسحاب، الانسحاب من الجمر، يجب عليَّ الخلاص... إنه هناك... دعني أقترب... إنه في متناول يدي، دعني... ها أنا ذي سوف ألمسه، أنتزعه... اسمح لي... كنتَ منزعجاً، قبل قليل، بسبب لوحة كوربيه، أردتَ الابتعاد، قطع الجسور... حين حاولتُ الاقتراب، حين مددتُ ذراعيَّ نحوكَ، حين سألتُكَ عما يخص ثمار الذهب... أردتَ دفعنا، الإشارة إلى أنّ الأوان قد فات، إلى أنّ القطيعة قد تمّتْ... لا تقلْ أيّ كلمة، إنْ لم تشأ ذلك... إشارة صغيرة فقط تكفي، لا أطلب منكَ أكثر من ذلك، طرْفة عين فقط، إغماضتها... وسوف يحلّ الأمان.

---

(١) تذكّر هذه الحركة بفعل التوبة المسيحي في الكنيسة الكاثوليكية. (م).

السلام. سوف أُنقَذ. سوف نُنقَذ. إلى الأبد. خلاص أبديّ. في النور الحقيقي. في السماء. تأمُّلاً في وجه الرب.

آه، لم يكن يوجد أيّ شيء، أهكذا إذاً؟ ما كنتَ تفكّر في شيء. ثمار الذهب - إنه جيد. كنتَ تظنّ ذلك. هذا هو كلّ ما في الأمر. هذا هو ما ترمي به إليّ، وعليّ الاكتفاء به، هذا ما ترمي به إلى المتعطِّشين من أجل إبعادهم، أنتَ الغنيّ كما هي حالكَ، المالك لمثل تلك الكنوز. هذا فقط لي: كنتَ تجد أن ثمار الذهب، جيد. وماذا أريد أكثر من ذلك؟ لن تعطينا محاضرة على أيّ حال، لن تتلو علينا الخطابات... هذا ما تعطيني إيّاه، هذه الأشياء عديمة الأهمية... أقلّبها عدة مرّات... ما هذا؟ أنا لا أعرف ذلك... هي قطع أتيتَ بها من دون شكّ من بلد أجنبي لم أزرْه قط... لا قيمة لها هنا، حيث أعيش، وأنتَ تعرف هذا جيداً. ماذا تريدني أن أفعل بها؟ تستطيع الاحتفاظ بها. خذها، أنا أعيدها إليكَ. لا أريدها.

* * *

صور مألوفة عن الوطن المُستَعاد... يشعّ منها الحنان، ينساب منها الأمان... إليها يعود المسافر من بلاد همجيّة، حنوّاً، ينحني إليها السجين العائد من أَسْره... ها هي ذي، في مكانها الدائم، مثبّتة في الجدار بالدبابيس فوق المكتب... ها هو ذا فيرلين[1]، بثوبه الخارجي الفضفاض، يجلس أمام كأس

(١) الشاعر الفرنسي بول فيرلين (١٨٤٤– ١٨٩٦). بين ١٨٧١ و ١٨٧٣ ربطتْه علاقة عاطفية مع الشاعر الفرنسي آرثور رامبو. فُرِّقَ بينه وبين زوجته بحكم محكمة بسبب ممارسته العنف ضدها، بعد أن كان ثملاً، نتيجة شربه لشراب الشيح المُسكِر. (م).

شراب الشيح على مقعد مُشمَّع في مقهى قديم، ها هو ذا رامبو[1] بربطة عنقه النحيلة التي تطير في الهواء، ها هو ذا جيد[2] بفتحتَيْ عينَيْه الضيقتَيْن المشابهتَيْن لعيون الهنود، تحت حواف قبعته العريضة التي يرتديها راعي الغنم في أميركا اللاتينية... وهذه... «آه، لقد علّقتَها... وأنا أيضاً... هي لا تفارقني، أحملها معي دوماً... رائعة، أليس كذلك؟ أعتقد – أأنتَ من رأيي؟ - بأنّ كوربيه لم يرسم قط لوحة أحلى منها... تخطّ أنامله على الهواء، تداعب... هذا الخطّ هنا خاصةً... كلّ هذا الجزء هنا... مدهش، ألا تجده كذلك؟ بالنسبة لي كوربيه، حقاً، أعتقد...»

ينحني الرأس الدقيق المتطاوِل. على الوجه يتأرجح شيء ما... مثل سخرية لا تكاد تُدرَك... في النظرة ثمة اندهاش... ولكنْ ما بك؟ ماذا أصابك؟ أنحتاج هنا في ما بيننا إلى التعبير، إلى التأكيد... أليس هذا بدهياً؟

هذا صحيح، كيف يمكن نسيانه؟ أليسوا في بيوتهم، في بلدهم، بلد متحضّر حيث تُحتَرَم القيم الحقيقية، حيث تُقَدَّر الجدارة، حيث تسود العدالة، حيث ينتصر الحقّ الشرعي؟ لكنْ كيف السبيل إلى تفسير ذلك إلى مَنْ لم يعرف قط العسف، الظلاميّة، الهمجيّة... كيف يمكنه أن يفهم، أن يشكّ فقط؟ كيف نجرؤ على الاعتراف له؟

الابن الفاسق المتشَبِّع بالعَرَق الرطب، بالروائح الماسخة، برائحة الغسيل العفن، وزيت تثبيت الشَّعر، والعطور المقلَّدة ، بالمشروبات الكحولية،

---

(١) الشاعر الفرنسي آرثور رامبو **(١٨٥٤– ١٨٩١)**، كتب الشعر وهو في الخامسة عشرة من عمره، وتوقّف نهائياً عن الكتابة في العشرين من عمره. ربطتْه علاقة عاطفية مضطربة مع الشاعر بول فيرلين. **(م)**.

(٢) الكاتب الفرنسي أندريه جيد **(١٨٦٩– ١٩٥١)**. **(م)**.

والمخدّرات، والإقياء، يشعر بالانزعاج نفسه حين يرفع رأسه فوق يد أمه الرقيقة المعطّرة قليلاً، ذات الأقراط الفضية، والعنق الذي لا يزال جِدّ نقي والمحوط، بتحفّظ شديد، بشريط صغير من المخمل، فيرى نظرتها المثبّتة نحوه والواثقة به.

«لو تعرف عذوبة البقاء إلى جانبك، هنا، كم أنا مسرور أنك هناك... لن تستطيع فهم ذلك... إنها أمور لا تفهمها... فهي لم تحدث معك أنت قط. أعرف أن هذا لا يحدث إلا معي. أتذْكر ذلك؟ لقد تحدثنا عنه يوماً، على ما أظنّ، أم أني أردتُ فقط أن أحدّثك عنه؟ ثمة أناس يجب عدم لقائهم مطلقاً، يجب الهرب منهم، فهم ضارّون... يتركون لديك أثراً ذا طعم سيّئ... فلا يزال المرء في اليوم التالي، يشعر بعدم الراحة... كما يجري بعد مشاهدة مسرحية سيئة، أو فيلم سيّئ...إنه إحساس مشابه لذاك الثِقَل الذي تشعر به في لسانك بعد أكل وجبة سيئة... الاحتكاك بهم يسبّب القذارة... ثمة شيء مهين...»

«وثمار الذهب، أتحبّ هذا؟»يمتدّ الوجه الناعم والمسطَّح في نهاية الرقبة الطويلة والنحيلة... وجه غير عصريّ لفتاة صغيرة جِدّ رزينة... وجه متبلوِر وَرِع دائم الشباب... «وثمار الذهب، أتحبّ هذا؟»... تتغلغل نبرة الصوت بهدوء مثل مسبار دقيق مرن، هناك، بلطف شديد... وأكثر من ذلك هي تصدر لثغة كما يكون الحال عند التحدّث إلى الطفل... كما ترى، أعرف كيف يجب التعاطي معها... لقد بحثتْ وتقصّتْ في كلِّ مكان بدقّة... آه، أنا كما تعرف، أرى كلّ شيء... إنها تعرف ما هو المناسب لكلّ واحد. ها هو ذا ما يجب منحه إيّاه. انظر، أمدّ له ذلك، سوف ترى، لن يستطيع المقاومة. لقد فاجأتَه، منذ قليل، ما كان يجب فعل هذا، لكني سأتدارك ذلك. ثمار الذهب، هذا هو بالتحديد ما يلزمه.

- ثمة أناس يجب علينا ألا ندعهم يقتربون منّا بأيّ ثمن. هم طفيليون يلتهمون مادتكَ الأساسية... هم جراثيم تستوطنكَ... لكني متأكّد من أنكَ، أبداً... يجب عليك الهروب منهم مثلما تهرب من الطاعون. حتى ولا الهروب، بالنسبة لكَ هم غير موجودين.

- أوه أنا، أتجنّب قدْرَ استطاعتي الناس الذين يسبّبون لي المَلَل، الذين يهدرون وقتي.

- نعم، أعرف، لقد كنتُ غالباً ما ألاحظكَ.عندك واحدة من غرائز البقاء تلك...أحسدكَ. تعجبني حين ترفض التواصل، حين تنتحي جانباً...

- لكنْ مَنْ يمنعك؟... تتصلّب نظرة التسامح، يتجعّد الجلد الدقيق لقصبة الأنف، فيشكّل تنافراً خفيفاً... «لماذا تفعل ذلك؟»

- آه لماذا؟ لماذا، نعم، تماماً، لماذا؟

لكنْ أثمة، إذَاً، مرسوم، أو قانون، أثمة إعفاء ممنوح ممَّن لديه السلطة، يسمح له، هو، برفض رؤية هؤلاء الناس الجذّابين، هؤلاء الناس ذوي الجدارة العظيمة، المثقّفين، الأذكياء؟ ماذا فعلوا من أمر كان متوقّعاً، مُقَرَّراً، مُقَوْنَناً، حتى يُمكّنه، في صددهم، من اتخاذ إجراء جِدّ فاحش في حقّ الناس؟ أجبْ لو سمحت. ماذا فعلوا لك؟ ما هي الأسباب الموجِبة التي لديك؟ ما هي الإثباتات؟ لا يوجد إثبات واحد، أليس كذلك؟ إنها فقط انطباعاتك، أحاسيسك شديدة الرهافة فقط، التي وحدك تشعر بها. لا أحدَ طبيعياً في تركيبته يقاسمك إيّاها أو يفهمها. لكنك تتصرّف بانحراف شديد، فتعطي الحق لانطباعاتك الأكثر آنيّةً. فأنت جِدّ مرهف، أليس كذلك؟... لا، لا تعتقد

ذلك، لا، لا تحكم عليَّ. أؤكّد لك، لا أسمح لنفسي بأيّ أمر. ولا أي شيء، من عدم التحفّظ، مطلقاً. ولا أيّ حرية متعجرِفة، أستطيع تأكيد ذلك لك. أنا واعٍ تماماً لواجباتي، لمسؤولياتي... وأنا متأثّر بعمق... أنا مسحور، كم هذا لطيف... مرّ وقت طويل... كم هم ساحرون... غاية في البساطة، واضحون تماماً وجِدّ واثقين. ضيوفه. في عقر داره. أتوا ليعيدوا وضع هذه اللحظات في كنفه، هذه الأجزاء الغالية، المقدّسة، في حياتهم... سيفعل كلّ ما يستطيعه كي يظهر جديراً بذلك، يمكن الاعتماد عليه... هو يقبل هذا الشرف، ينحني، أعطني هذا، سأحمله عنك، الطقس حارّ جداً، لا، بارد قليلاً؟ لكنْ سترى، تفضّلْ، هنا، قرب النار، اجلس هنا، لا، هناك، أفضل لك... كنبة، مخدّة، شراب البورتو، الويسكي... هم جامدون قليلاً، كأنهم منكمشون... يبدو أنهم منتفخون إلى حد الانفجار من شيء يحاولون التستّر عليه واحتواءه... ما هو؟ خشية؟ عدائية؟ إنه أمر ما في داخله بالتأكيد، شيء ما يتسرّب منه، فيترسّب فيهم ويبدأ ينمو، ويتطوّر... هو يرغب في إشاحة وجهه، بخفض نظره...هذا يدعو إلى الهزء، هذا مضحِك جداً، كهذه الشخصية، أين ظهرتْ إذاً؟ تلك الشخصية التي كانت تخفض نظرها حتى لا يصاب الآخرون بالعمى من إشعاعات ذكائها[1]... هذا غباء... انظر... لا شيء، لا شيء فيَّ يمنعني من النظر إليك مباشرةً في عينيك. انظر، أنا أتمعّن فيك، نحن متساويان، متشابهان تماماً، أنت تعرف ذلك جيداً... أنت تشعر مثلي، أنت تفهم كلّ شيء مثلي، ومن

---

(١) إشارة إلى بشخصية الراوي، في رواية القبو للأديب الروسي دوستويفسكي؛ والراوي فيها كان يعدّ يعدّ نفسه أكثر ذكاءً من كلّ مَنْ يحيط به، إلى درجة أنه ما كان ينظر إليهم مباشرةً في عيونهم. **(م)**.

المحتمل بأفضلَ مني... لماذا قد أتحايل عليك؟ لماذا قد أخدعك؟ بأيّ حقّ قد أخفي عليك... ما الذي فيك، إذاً، يمكنه منعي من إعطائك ما أعطيه للجميع من حولي؟ بالنسبة لك، كما بالنسبة لكلّ أصدقائي، سأبحث، سأستخلص من كلّ ما أراه، من كلّ ما أعرفه... سأجمعه... بالنسبة لك، هاك، ها هو ذا، خذ، سأُريك... تنغرس يده في الجيب الداخلي لسترته... انتباه. كلّ غريزة البقاء المتنبّهة عنده تمسك يده لتوقفها. توقّف. احذرْ. لا تتصرّفْ بجنون. هم غرباء، أعداء. هم يحدجون الآخرين من حولهم بنظرات حذِرة، هم محترِسون، قلقون، كما لو أنهم كانوا يستشعرون من حولهم بتهديدات غير محدَّدة، بخطر غير مرئيّ... يجب عدم المجازفة بإثارتهم، بأيّ ثمن... لكنْ ماذا؟ إثارة ماذا؟ عروض خيالية. جنون. إغواء. خلفية الشيطان. معطف من اللبّاد، قميص من وبر الماعز، إشارة الصليب، جثوّ منافق، نجِّني من الشرير... ها هو ذا. منهَك. لم يعدْ يرى شيئاً. هو نقيّ. هو بريء. هو متواضع ومطواع، يخضع ويطبّق القاعدة. يده مطواعة... تنغمس في الجيب الداخلي لسترته وتخرج منه... كم هو طبيعي، كما ينبغي عليه أن يكون حين يستقبل في بيته أصدقاء جذّابين يهتمّون بمثل تلك الأشياء... «لوحة كوربيه هذه... لا أدري إنْ كنتم تعرفونها؟ رائعة، أليس ذلك صحيحاً؟»

ولا أدنى إشارة من الموافقة. تمسك اليد بأطراف أصابعها بالبطاقة البريدية وتمرِّرها. صمت. نعم، مُطبِق. صمت. ولا كلمة. يأخذ النسخة المقلَّدة ويمرّرها دون أن ينبس ببنت شفة. وماذا يوجد هنا إذاً، أريد أن أعرف. ما هذا التحفّظ المزدري؟ ما هذه الضحكة الصفراء المكتومة؟ انتبه، إذاً، لن تعاود الكرّة؟ رجل بسيط جداً، أتسمع؟ رجل شجاع، محترم وذو قيم، يأخذ

من يديك نسخة مقلَّدة للفنان كوربيه تعطيه إيّاها، يلقي عليها نظرة سريعة... هذا صحيح، تكاد تكون نظرة سريعة... طيب. لنقبل بذلك. من المحتَمَل أنه يعرفها. إنه رجل رقيق جداً، رجل مثقّف. لا يقول شيئاً. السكوت علامة الرضا. صمته ينمّ عن الاحترام. عن التواضع. هو لا يعتقد بأهمية رأيه، فهو لا يجده غايةً في الفائدة. هذا كلّه على شرفه. إنه رجل مخلص. رجل بسيط جداً وصريح لا يحب الصيغ الجوفاء، ولا التصنُّع.

بسيط. متواضع. صريح. متغلغِل في الاحترام. السكوت علامة الرضا. أريد ذلك بكلّ سرور. هذا جيد، أستسلم. كانت تلك هلوسات. الإشارات الخطرة لهذيان الاضطهاد. حتى حينما يقلع العين هذا المشهد، فأنا أستسلم. حتى لو كان الأمر بدهياً إلى حدّ الصراخ، حتى حين تنحني، جِدَّ منخفضةٍ، كما لو أنها تنثني من تأثير الإعجاب مطلقةً زقزقاتها، حتى حين ينظر إليها، أرغب في ذلك كثيراً، لا شيء يحدث بينهما، ولا إشارة سرّية بينهما تُظهِر تواطؤهما، المسافة الشاسعة التي يحتفظان بها في ما بينهما التي يرياني من خلالها، مأخوذاً، سجيناً كلّياً في حقل نظراتهما. لا. هما كلّياً ضدّي. هما قريبان جداً إلى درجة لا يستطيعان معها تشكيل أيّ رؤية شاملة، هما يدركان هذا فقط، صورتي تلك التي أقدّمها لهما عن قرب، هذه النظرة الطيبة المنفتحة، الواثقة، ها هي ذي، التي أنظر من خلالها مباشرةً في عيونهما...

- لماذا أراهم؟ أنا أتساءل عن ذلك؟ من المحتمل، لغبائي، لضعفي وانقيادي. هذا يدعو للهزء... لا أدري كيف أفسّر الأمر لك... لديّ شعور عبثيّ بالمساواة. أثق بهم دون مقابل. أحدّثهم بما يُهمّني ويشغل بالي. أحاول التعامل مع الجزء الطيب منهم... أعتقد دوماً

بأني سوف أصل إلى إقناعهم. أيّ واحد... يكفيه... أن يريهم... هذا، خذوا، هذه الروعة. هذه اللوحة لِـ كوربيه...

«وثمار الذهب، هل تحبّ هذا؟»صوت رقيق عذب يتسلّل كي يُدخِل بلطف... ما يحتاج إليه فقط... سترون... أعرف من أين تؤكَل الكتف... نظرة تتفحّص، مثيرة... حسناً، لم تخطئ، ليروا إذاً، ليسمعوا، وأنا أصرخ... نعم، أحبّ هذا. أحبّ هذا، أتسمعون؟ هيا. اثبتْ. لحظة الاستعداد. خذوا التحية. أحبّ هذا. ومن دون تفاسير. أنا هكذا. انظروا إلى وضعي، تأمّلوا. ها أنا ذا، أحبّ ثمار الذهب، كما يمكنكم أن تظنّوا ذلك. تماماً. وأمنعكم من الاحتجاج. والآن، هيا، أسرعوا، اهربوا. لقد رأيتكم بما فيه الكفاية، مضتْ نزوتي وانتهتْ. كان هذا قد سلّاني للحظة، وهو أن أدعكم تقتربون، كنتُ أرغب في معاشرة الرعاع. والآن، عودوا إلى أماكنكم، إلى غرفة الخَدَم، إلى القبو. فنحن هنا في غرف السادة.

- أوف، هيا، لنتوقفْ عن التفكير في ذلك. ليذهبوا، إذاً، إلى الجحيم. أنا أهزأ من ذلك، الآن. إنه مَنسيّ. نحن مرتاحان هنا، مع بعضنا بعضاً. إذاً، قل لي بالأحرى، كنتُ أريد سؤالك، أنا لم أقرأه فعلاً، لم يكن لديَّ وقت إلا لتصفّحه، أرغب في أن تقول لي: ثمار الذهب، ما رأيك به؟

- إنه كتاب رائع. فضلاً عن أني أقول ذلك الآن، كما هو واضح... أنا أكتب مقالة، حقاً...

- را - ئع.

في الكلمة ثمة شيء له وقع لا يناسب هذا الرجل ذا الوجه السمْح والمتعب، هذا الصديق القديم ذا النظرة الطيبة المنهَكة، ثمة شيء من التأكيد، من الرضا المثقَل، من الهزء البسيط... هو مضحك... أتسمع هذا؟... إنهم يتنصّتون خلف الباب، إنهم هنا، إنهم دوماً في حالة ترصُّد...

را – ئع... انعكست الكلمة فيهم، فعادتْ إليَّ، مفخَّمة، مشوَّهة... رااا – ئع... يتدافعون مقهقهين... هذا التأكيد، هذه النبرة دون جواب... لقد ألقى بالشعار. اتّخذ الزعيم القائد قراراته. والآخر، فوراً... ماذا كنتُ أقول لك من قبل؟ آه، أنا أعرفه. سترى ذلك...

لا، لا ولا. لن ترى شيئاً. أنا حرّ، أتسمع؟ حرّ تماماً. مستقلّ. اعلمْ ذلك جيداً: لن أُخدَع مطلقاً. لا أحد يستطيع فرض ذلك عليّ... «حقاً؟ ثمار الذهب، أنا، لا أدري، أنا أحذرُ من هذا الكتاب قليلاً. يُحكى عنه كثيراً... لوميه معجَب به. هذا مقلق قليلاً...»

أنا لا أخاف ممّا يخرج من بين الأجفان المتقاربة فيغرز نصله مباشرة في عينيَّ. أشيح بوجهي، أمشي– انظروا إليَّ – نحو الطاولة حيث وُضِعَ الكتاب على أوراق مليئة بكتابة عريضة. أفتحه... وكما توضع اليد على الكأس لإيقاف رنينها، أصنع الصمت في داخلي. فليتوقّفْ كلّ شيء، فليتجمّد. أتقوقع على ذاتي، ثابتاً بصلابة، ثقيلاً، شبه هامد قليلاً. أؤكّد لك بأنه يلزمني تيار قويّ كي أنتفض، كي أقف. ولا شيء، أعترف بذلك، بأنّ لا شيء يأتي من تلك الجُمَل الساطعة والمتصلّبة، المُنشّاة، المتجمّدة... لا شيء. لا شيء البتّة. وهذا يطمئنني، لا أدري لماذا. أشعر بنوع من التهدئة... هل السبب في هدوئي هو في اقترابي منك؟ لأنني موجود على

ضفّتك، وشاعر بأني مشابه لك؟ أنا مسرور لأني استطعتُ قول ذلك لك: لا شيء يمرّ، ولا حتى أقلّ رعشة ممكنة، كما ترى، أنا شريف، أنا صريح. أنا حرّ، أنا قويّ، أنا مستقيم وصريح. حرّ، حرّ تماماً... شريف...

لكن هناك... حقاً... هناك، بصدق... ألم يمرّ شيء ما للتوّ؟... أنا مجبَر... بصراحة... لا أستطيع إنكاره... أعترف بأنّ هناك، يبدو لي أني أدرك... لا أستطيع شيئاً حيال ذلك... أسمع صوتاً خفيضاً جداً... رنيناً خفيفاً جداً... تنتشر الموجات، من كلمة إلى أخرى، من جملة إلى أخرى، يرنّ شيء ما بِخِفْيةٍ تامة، أسمعه، لا أستطيع شيئاً حياله... ما العمل؟ يلزمكم، لكم شخصياً، كي تسمعوا، صراخاً، دحرجةَ الطبل... لكنْ أنا، يلزمني أن أسدّ أذنيّ كي لا أسمع شيئاً... تبدو لي الكلمات الآن أكثر ثقلاً، أرغب في الإمساك عن قولها، بتقييم وزنها، بفتحها، بأن أستطيع على مَهَلٍ... أعتقد فعلاً بأني قد أجد فيها ذلك... ثم ثمة الذكاء، كما تعرفون... لكنْ ابتعدوا عني، أنتم تزعجونني... وجودكم، هناك، في المحيط، يؤذي... حين تكونون هناك، أسمع بشكل سيّئ، تأتيني الأصوات مشوّشة، في وجودكم، أشعر كأني في قاعة بنظام صوتيّ سيّئ... اخرجوا، قد قيل لكم ذلك من قبل، أنتم هامدون، لزجون، فِظاظ... وجودكم... يتّسخ المرء من التواصل معكم... مكانكم ليس هنا، بيننا... «يبدو ذلك رائعاً، هذا صحيح. سأقرؤه. يجب تذوّق كلّ جملة. بريهييه[1] كاتب. هذا أمر مفروغ منه. هذا سوف يرضي بعض البلهاء، بأن تقولوا ذلك...» أتسمعون، أنتم، هناك، سوف تُجبَرون على أن تُعجَبوا، سوف تُسجَنون ضمن الإعجاب، سوف توضَعون في الزريبة،

---

(١) إميل بريهييه **(١٨٧٦– ١٩٥٢)**، كاتب وفيلسوف ومؤرّخ فرنسي. معروف بأعماله حول تاريخ الفلسفة. **(م)**.

غنماً تثغو، محوطة بالكلاب... «كلّ هؤلاء الناس الذين يفعلون الصعاب. هؤلاء البلهاء... أنا لا أفهم بودلير وفرحته بعِشرتهم[1]. أما بالنسبة لي، فالتفكير بأنهم موجودون يعذّبني... ثمة لحظات أريد فيها إبادتهم».

أنت غريب. افعل مثلي إذاً. لا تهتمّ بذلك. كن على ثقة أكبر. الحقيقة والجَمال ينتصران دوماً، صدقني. يكفي أن يؤدّي المرء عمله بسكينة. يكفيه متابعة مشاريعه بطمأنينة وثبات.

أعرف، هذا عُتْه، لك الحق بالتأكيد. هيا، سأتركك. اعذرني، أزعجتكَ. لكنْ في بعض اللحظات، كما تعلم، أصبح أنانياً، لا أستطيع الامتناع عن ذلك، يجب أن أراكَ حتماً.

* * *

خلف الشاشة التي تحمي الإيماءات، الكلمات... «لكنْ لا، مطلقاً، لا تعتذر، بل على العكس، عُدْ... ولا تأخذ الأشياء على محمل الجِدّ بهذا الشكل... تربيت صديق على الكتف، ضحك ساذج بسيط... إذاً لا تنظر إلى كلّ هؤلاء الناس، هيا، تشجّعْ، اعملْ بجِدّ، إلى اللقاء القريب... هذا هو، في مساء ما قريب... بكلّ سرور...» خلف الستارة الرقيقة من الدخان، بوصول الدخيل، كلّ ما فيه كان قد هرب، كلّ ما فيه كان قد تبدّد، كلّ مَنْ كان ينتظر، مختبئاً، تجمّع، تنظّم، وعاد إلى النظام. حالَ إغلاق الباب من جديد... دون ضجيج، بأقلّ ضجة ممكنة،

---

(١) تلمح سارّوت هنا إلى ما ورد في «اليوميات الحميمة» للشاعر الفرنسي شارل بودلير (١٨٢١– ١٨٦٧)، إذ قال، بما معناه، إنَّ على المفكّر التدرّب على حُبّ نقاش الأغبياء وعلى قراءة الكتب السيئة، ليستخلص من ذلك فرحاً مُرّاً يكون بمنزلة تعويض عن تعبه. (م).

بهدوء... بشكل لا يدرك فيه الآخر الصوت الخفيف الذي لا يمكن تجنّبه لإقفال الباب، إلا بصمم تام، الصوت الجاف الذي يجعله يتأرجح فجأة في العدم، يذوب، يتفكّك – ولا يبقى له أيّ أثر. حتى الصورة التي تركها، لثوانٍ معدودة، الشكل الضيق الطويل والمعتم الذي كان ينزل درجات السلّم، قد تلاشى. لم يبقَ شيء مطلقاً، ولا حتى إحساس بالارتياح. لا شيء يمكن تصحيحه، لا شيء يمكن محوه، لا خراب يمكن إصلاحه. ليس ثمة من خسارة ولو قليلة، ولا خَمْش، ولا بقعة، ولا غبار، ولا طبقة بخار رقيقة على الأجهزة الصقيلة واللامعة: الآلة القديمة رائعة التشكيل، الصلبة، التي تنعم بالمزايا، المُزَيَّتة والمحفوظة بشكل جيد، تهتز بهدوء، ثم تعود فتشتغل.

الآن وبينما يجلس إلى طاولته، يعرف أنّ الساعات ستبدأ تتمدَّد ببطء، بهدوء، تنتشر بعيداً أمامه في الصمت، في عزلة الليل، مثيرةً، نافخةً فيه شعور حرّيته، قدرته، ديمومته – هو طعم سابق للخلود. بالقرب من الأوراق المبعثرة، الكتاب مفتوح. رائع، قال هذا. يجب كتابة ذلك: كتاب رائع.

مثل هذه الزهور الممتلئة المبعثرة بفنّ، التي تنتصب بتلاتها القاسية والسميكة على العشب المجزوز بدقة، الناعم والكثيف، فإن نصب المضارع في ماضٍ يتكرّر ويمتد لثقله فينشر بثقة مَلَكيّة، في منتصف هذه الصفحة المقروءة مصادفةً، في منتصف تلك الجملة الصقيلة والمختصرة، إرباك نهايتها الحركية العظيمة.

لكنها بالأحرى، هي حالة نصب المضارع تلك ذات النهايات المتيبّسة والمثقلة التي تحملها الحركة النشطة والمرنة للجملة من دون مجهود، هي مشابهة لذيل مجرور مزركش لفستان ثقيل من البروكار تركله قدم صغيرة متوتّرة، بينما ينحني، بطريقة احتفالية، رأس دقيق مذرور بمسحوق التجميل ثم ينتصب

بجلال رفيع. هي انحناءة يردّ عليها، فوراً، وطبيعياً تماماً، أيّ شخص مهذّب وحسن التربية، بتحية عميقة.

هي أشكال ثقيلة مضحكة قليلاً للطراز الذي شاعَ في ما مضى، ويعطي مصمّم أزياء عبقري الطراز الحالي جاذبية الحنين، المليئة بالصِّبا والمندثِرة على السواء، وذلك بإعادة استعمال الطراز القديم، بتنقيته لتقليصه إلى مادته الأساسية، إلى جوهره، بمعايير مدروسة علمياً وبدقة.

حالة نصب المضارع، تلك، في ماضٍ يتكرّر، بنهاية ذيلية مضحكة قليلاً ومربكة، تأتي تشعبات فكرنا لتنتهي عندها، كالشِّباك العصبية في آخر ذيل العقرب المخيف: تمتط نهايته الحساسة، تمتد وتلسع بحيوية شيئاً في منتهى الدقة، يكاد لا يُلمَس –هي حالة افتراضية لا تكاد تُميَّز، هي نيّة غير قابلة للإدراك.

لن يمجِّد، حتى ناقد واحد، ابداً، كفايةً، كما أنه لن يفرض أبداً بشدة، هذه اللغة المكتوبة التي تخفِّف، ترقّ، تصفّي، تقلّص ما بين حدودها الثابتة، الجامدة قليلاً، فتنظّم، وتبني، وتقوّي ما يجب أن يدوم.

هي ترفض أشياء كثيرة بشكل طبيعي تماماً، هي لن تسمح أبداً بتمرير ما هو رخو، مغبش، مغلوط، لزج. كل ما تبالغ فيه وتنشره لغة العامّة في مدّها المليء بالطمي.

هنا، ما من ضحكات ضاجّة، ما من نظرات محمومة، ما من إيماءات مثارة، ما من أيدٍ رطبة تضغط على يديك. لا أحد يمسك بك من طيّة سترتك ولا أحد ينفخ في وجهك نَفَسَه الثقيل والساخن.

هنا، كلّ شخص يحافظ على مسافة خاصة به. فنحن بين أناس جميلي المعشر. بأيّ كتمان مستَحَبّ، بأيّ تهذيب رقيق تُدعى. بأيّ خَفَر، بأيّ تواضع

فخور يُلفَت انتباهك... ولكنْ هل جرى فعلاً اِلْتِماسُكَ؟ أمامك، من أجل فرحة الرقص الصافية، تُنَفَّذ رقصة لشخص وحيد. كلّ خطوة من حركاتها منفَّذة بدقة متناهية، طقسية، مقدّسة، ثقيلة بمعنى خفيّ، فتُتِمّ الطقوس التي تعود إلى آلاف السنين، وتحتفي بالسرَّيْن العظيمَيْن: الموت، الحُبّ...

رائع. يجب قول ذلك. يجب الصراخ به. وِقفة، الآن، قبل الانطلاق. تتجمّد اليد الممسكة بقلم الحِبر في الهواء، وقبضة اليد مسنودة إلى طرف الطاولة.

«أؤمن – وأنا أكتب ذلك وازناً جيداً كلماتي – بأنه مع ثمار الذهب ثمة عمل فنّي...»

هو عمل فنيّ صافٍ – هذا الشيء المنغلق على ذاته، الممتلئ، الناعم والمُدَوَّر. لا يحوي أيّ فتحة، ولا أيّ شقّ يستطيع جسم غريب التسرّب من خلاله. لا شيء يكسر وحدة المساحات الصقيلة تماماً التي تتوهّج كلّ أجزائها، مضاءةً بحزمة إشعاعات الجَمال المطلَق.

تحت هذا النور الدافئ، يعلو فيه النُسغ الحيّ، وترتفع نبرة الكلمات بجرأة... «رائع...» أعلى... «عمل فنيّ صافٍ...» أعلى... «لا شيء في أدبنا يمكننا مقارنته به...» أعلى، أعلى أيضاً... «إنه أجمل ما كُتِبَ...» دوماً أعلى، تنتشر القمم العالية... «إنه أجمل ما كُتِب منذ ستاندال[1]... منذ بنجامين كونستانت[2]...»

* * *

(١) ستاندال (١٧٨٣–١٨٤٢)، روائي فرنسي. اسمه الحقيقي ماري هنري بيل. يُعدُّ أحد أبرز وجوه الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر. اتسمت أفكاره، الرومانتيكية الطابع، بسخرية بارعة، وبنفاذ نادر إلى أعماق النفس البشرية، وبنزوع واضح إلى النقد الاجتماعي. (م).

(٢) بنجامين كونستانت (١٧٦٧– ١٨٣٠)، روائي وسياسي ومثقّف فرنسي. (م).

«جيدة جداً، مقالة برولية[1] حول ثمار الذهب. من الطراز الأول حتماً. كاملة».

النبرة الهادئة هي تلك المتعلّقة بالملاحظة الباردة. في الوجه الجامد، تتجه النظرة الثابتة مباشرةً أمام المرء كما هي فوّهة المدفع التي يوجّهها الجندي إلى الأمام وهو ثابت فوق دبابته، في حين كان يشارك في الاستعراض العسكري مع الجيش المنتصِر في شوارع المدينة المحتَلّة.

لا فائدة من التفتيش ذات اليمين وذات اليسار: فكلّ عزم على المقاومة قد سُحِقَ. مَنْ ذا الذي قد يجرؤ على الاحتجاج؟ أيها المتمرّدون، أيتها الرؤوس اليابسة، أنتم جميعكم هناك، يا مَنْ كنتم تريدون نفض غبار الكسل عنكم، يا مَنْ كنتم ترقصون فوق الأراضي الجميلة الغنيّة التي استبحتموها برقصاتكم الوحشية، يا مَنْ كنتم تطلقون الصيحات، لقد عرفتم الآن أنّ العيد انتهى. القيم الحقيقية تنتصر. يستطيع الناس الشرفاء تنفّس الصعداء. آه، يمكننا قول ذلك، فقد عدنا من البعيد. إنّ العصابات المُخَرِّبة الضاجّة كانت قد اجتاحت كلّ شيء، وكان الرعاع الجَهَلة، المنتشرون في كلّ مكان، يمزّقون الصور المقدّسة، ويدنّسون الأماكن المقدّسة. أيّ بهيم همجيّ، برز من مكان لا نعرفه، كان يصرخ بتصريحات دون معنى. لقد تحمّلنا كلّ شيء بصمت. كلّ يوم، كان على المرء أن يرى مرغماً الأصدقاء الخُلَّص ينتقلون باتّضاع في اتّجاه القادرين. تفوح منهم رائحة النتانة، مُتصَبِّبين عَرَقاً. أدنياء يلثغون، بكلمات ساقطة. كان على المرء تحمُّل كلّ هذا. عاجزاً عن فعل شيء، كان عليَّ ملاحظة كلّ الانحرافات،

---

(١) يذكِّر هذا الاسم بلفظة «محترِق» في اللغة الفرنسية. **(م)**.

الانتفاخات، التدافعات، الخلطات الفوضوية غير الكاملة، الفوضى المُعتِمة، الليالي التي يتخلّلها بصيص نور كارثيّ.

وفجأةً، تلك المعجزة. هذا الشيء الصغير ذو المظهر المتواضع والطفيف. عذراء بثوبٍ راعية. ودُفعةً واحدة، تُكنَس كلّ قوى الشرّ. ويعود النظام ليسود أخيراً. لقد جاءنا الخلاص. الآن سوف يتعلّم كلّ الكسالى، والجَهَلة، واللقَطاء، وذوي الشخصيات القويّة، أنْ يكونوا مستقيمين. أن يحترموا قواعد التهذيب والسلوك العام. سوف يتعلّمون—آه هذا قاسٍ، أليس كذلك؟ - أنّ الأدب هو مكان مقدّس، مُغلَق، يستطيع فيه التعليم المتواضع فقط، والدراسة المتأنّية للمعلّمين إعطاء الحقّ لبعض المُختارين النادرين بدخوله. الغشّاشون ومُحدَثو النِعمة والدخلاء، مُقصَوْن.

من كلّ الأماكن يأتي المرء الآن ليثبت إخلاصه، وخضوعه للنظام العام الذي أُعيدَ أخيراً، وليثبت ولاءه له.

ها هي ذي مؤسسات الدولة الكبرى. الحكومة. أعضاء الجمعيات الوطنية. الأكاديميات الخمس. المدارس العليا. الكلّيات...

«منذ لاروشفوكو[1]، ومدام لافاييت[2]، وأقول هذا بصوت مرتفع جداً، منذ ستاندال، لِـ برولیه الحق، منذ كونستانت...أنا، انظرْ، أنا الذي لم أعد أقرأ قط الروايات... فالفهرس الطويل يدغدغ الجفن الرقيق المجَعَّد... لا وقت لديّ... فالنهارات جِدّ قصيرة... المساءات حُرّة، على المرء أنْ يكون على عِلمٍ

---

(١) فرانسوا دي لا روشفوكو (١٦١٣ – ١٦٨٠)، كاتب وفيلسوف وحكيم فرنسي. (م).

(٢) ماري- مادلين بيوش دي لا فيرن، مدام دي لافاييت (١٦٣٤ - ١٦٩٣)، أديبة وروائية فرنسية. (م).

بما يجري... يحدث كلّ شيء بسرعة كبيرة في هذه اللحظة... يجب قراءة كلّ الأعمال الصادرة حديثاً... حين أحظى ببعض ساعات الفراغ، لا أستطيع السماح لنفسي بتبديدها... أفضّل العودة إلى الأعمال الكلاسيكيّة، إلى كتّابي المفضّلين... لكنْ هنا، مع ثمار الذهب هذه، أعترف بأني عثرتُ من جديد على فرح نادر جداً، بما أني لم أكن أفكّر بأنّ عملاً معاصراً قد يستطيع إعطائي إيّاه... رائع. جوهرة تاج حقيقية... في الهواء تداعب اليد بحُبّ شكلاً مستديراً... شيئاً صغيراً كاملاً. منغلقاً على ذاته. مستديراً. ممتلئاً. دون شِقّ، دون أيّ خطأ في الذوق. لم أجدْ واحداً قط. ما من غلطة واحدة في البناء. وهو جِدُّ دقيق، أليس كذلك؟ جِدّ صعب بمظهره الخارجيّ البسيط. معجزة حقيقيّة في هذه الظروف الحاليّة...»

ولكنْ هل فقدوا عقولهم إذاً؟ هي تتوق إلى الاحتجاج، إلى إيقافهم... كيف يجرؤون؟ هل نسوا إذاً أنه هنا، أنه يصغي، منكمشاً على ذاته... في كلّ كلمة يلفظونها بتلك النبرة غير المتحفّظة، الواثقة، تشعر هي (فما من حركة داخله لا تنتقل إليها فوراً)، بأنّ ثمة، في داخله، وديعة ثقيلة تتراكم، تتضخّم... لا تستطيع الإشاحة بعينيها عن أصابعه ذات الأظافر المُعتَنى بها التي تربّت على الطاولة بضربات صغيرة دالّة على فَقْد للصبر... كانت تريد أن تكون إصبعه الصغيرة في تلك اليد التي، أولاً، تصفَّحت... يصعب عليها تصديق ذلك، فلقد حدث هذا منذ وقت طويل جداً، لم تكنْ بعدُ قد ولِدَتْ خلاله... كانت تريد أن تكون واحدة من هذه التجاعيد الصغيرة حول عينيه المُتعَبتَيْن بسبب ما فعلتاه من تركيز شديد، وتمييز كبير في التحديق بعدد لا يُحصى من اللوحات، من التماثيل، وبعدد كبير من الصفحات المخطوطة، الموقَّعة بأسماء مجهولة، إذ لم تكن، هي،

ترى فيها، (لَمَنْ قد تتجرّأ يوماً على الاعتراف أمامه بذلك؟)، هي، الجاهلة، الفاقدة للحِسّ، إلا خليطاً فظيع البشاعة، إلا فوضى تولّد الحزن، أما هو – وكأنّ فيه إبرة مغناطيسية، تبدأ فوراً، وبطريقة إعجازية، تهتزُّ – أمام دائرة المعجبين الذين كانوا ينتظرون بصمت لتنفتح شفتاه بتردُّد وليسقط منهما الحُكم المختصر، فبإيماءة واحدة من يده الممدودة، بنظرة واحدة ثابتة... هناك... هاكم، هنا... انظروا... استطاع، واقفاً بصلابة، وكأنه مُجتاح من تيار قوي، إظهار شيء يهزّ الناس، شيء حيّ... ذلك هو، هاكم... ذلك هو، إنه جيد، إنه ممتاز... ما اسم صديقتكِ الشابة، إذاً؟

تنبؤات غريبة تحقّقت... لحظات من السعادة... حين كنتُ في السادسة، أو في السابعة من عُمري، فعلاً، أفترش العشب على ضفاف الجدول، أتمعّن بأوراق الزيزفون وهي تحيط بالسماء بتقاطيعها المضطربة... أيمكن لهذا أن يحدث؟ أنا؟ عني؟ قال ذلك... لم تعدْ قط تنتظر هذا منذ زمن طويل، كانت قد أقلعتْ عن ذلك... بالنسبة لها لقد حدثت المعجزة أيضاً... لامس جناح الملاك البشير رأسها الخفيض... أتكون جديرة بذلك؟ ألديها القوّة؟ أيها المعلّم... وتنحني انخفاضاً شديداً إلى الأسفل... اغفر لهم... اغفر لهؤلاء البهائم، لهؤلاء غير الواعين، الذين يمرحون، الذين يتمرّغون بجنون، الذين يتجرّؤون، أمامك، على إطلاق الأحكام بهذه النبرة الجازمة، كما لو أنّ لهم الحق في ذلك... هم، بيادق، أرقام، وحدات بلا أسماء لهذا الجمع القادر فقط على الاستعراض بصمت في الأماكن المقدّسة المليئة بالذخائر التي أعطيتَهم إيّاها لتبجيلها، التي منحتَها، فرضتَها على وَرَعهم، هم، ناسين مكانهم، خارجين من بين الصفوف، هم الذين يقفون أمامك ليتفوّهوا طويلاً بترّهات لا فائدة منها... هيا، اصمتوا. مَنْ يهتمّ بأحكامكم؟

اخرسوا. يا معلّم، نريد الإصغاء إليك. هي تكبح ذاتها حتى لا تنحني خفيضةً لتصل إلى يده التي تُربِّت على الطاولة بضيق، لتصل إلى قدمه التي يؤرجحها بانزعاج... تنهض نحوه... نحن لا شيء... جهلة مساكين، نهيم في الليل، نتعثّر، اسحبْنا من هناك، أتوسّل إليك... تلتفت إليه بعينين متوسّلتَيْن... «لكنك لا تقول شيئاً... قل لنا... ما رأيك في ذلك؟»

ينفخ الهواء من منخريه بدُفعة جافة تدفع بالآخرين جانباً، تجعلهم يقفون بعيدين... اف... اف... «لكنْ يا صديقتي الغالية، أنت تتكلّمين معي كما لو أني عرّاف... كلّ حركة من خدّيه تكشف عن الازدراء، عن شبه تقزّز خفيف... لا أعرف، أنا... - آه نعم، نعم، أنت تعرف...» ابتسامته متعجرفة، يبدو مُسَكَّناً، شبه حانٍ... «لا، لماذا؟ ومِنْ ثَمّ، ببطء كأنه مسحوب رغماً عنه... أعتقد بأني قد أكون بالأحرى من رأي الدكتور لوغري... إنه كتاب جميل جداً، ثمار الذهب. ربما ليس تماماً من خلال بنائه. قد أرى فيه، أنا، بعض التشويه. ولا حتى، كما يشير إليه برولیه، بسبب أنَّ هذا الكتاب مكتوب بلغة كلاسيكية جميلة. تُؤلَّف في الأوقات الحالية أعمال أدبية مُقَلَّدة جميلة جداً. هذا ما يفعله عدد كبير من المبتدئين... لا... ليس هذا. فضلاً عن أني لا أجدها كلاسيكية إلى هذا الحدّ. بالمعنى الذي تأخذه هذه الكلمة في العادة. إنها كثيفة، جَذْلة، ثقيلة، حتى إنها صعبة أحياناً. إنّ الأعمال الكلاسيكية، على أيّ حال، ويُنسى هذا على الأغلب الأعمّ، حين كانت أعمالاً حديثة، كانت هي أيضاً صعبة وكثيفة. إنه عمل أدبي صعب. كان عليَّ أحياناً استدراك محتواه عدة مرّات. لكنْ، أنا، بالتحديد أعجبني لحداثته. إنه عمل يعكس تماماً فكر عصرنا هذا. وهذا بالتحديد، على ما أعتقد، هو الذي يميّز العمل الفني الأصيل، أليس كذلك...»

كانت تريد طلب الأمان، والإشفاق على عضلاتها المتعبة، وعلى عظامها العجوز. راودتْها لحظة أمل، كانت قد ظنّتْ بوجود راحةٍ وهي تراه منتحياً جانباً، بمظهره الذي من الممكن أن يبدو عليه، مظهر شخص معكَّر المزاج، منزعج قليلاً، مزدرٍ، يجبرها على التقدّم أمامه، كأنها مسحورة، على التبختر أمامه ليلحظها، على استعراض نفسها، على التجرؤ، كيف استطاعت ذلك؟... هي الآن تحمرّ خجلاً من ذلك... فاقدةً لصوابها، تكشف له الأمر... «نعم، لكَ أستطيع قول هذا، لك يا لوسيان، فأنت صديق قديم... أعرف أنك لن تخونني، أنك لن تزدريني... أثق بك... أعترف بذلك... ثمار الذهب ذلك العمل الذي طالما جرى الحديث عنه... حسناً، لا شيء يمكن فعله... لقد استدركتُ محتواه لعشر مرات... إنه قاسٍ، إنه بارد... يتوَقَّع فيه المرء عضّ لُبّ شديد الرطوبة، لكنّ الأسنان تُكسَرُ فيه على سطح من المعدن...» ولم يكن قد قال شيئاً، نظر إليها، كأنّ في عينيه، في ابتسامته، شيئاً من التعاطف... بينهما، وهي شعرت بذلك، وكانت متأكّدة منه، تواطؤ، حميمية – هي تعرف أنها تسلّيه أحياناً، أن ثرثرتها في بعض اللحظات تروق له – ثمة انعكاس ما عنده لهذا الإعجاب الذي تُكنّه له منذ الأزل، إنه يرى ذلك جيداً، لوسيان العزيز هذا...

وها هو ذا قد استُفِزّ. لقد سُحِبَ من عزلته وأُجبِرَ على لعب دوره، على الحفاظ على رفعته. على ارتداء ثوب القضاة الأحمر ذي الفروة البيضاء، على التخفّي تحت قلنسوته والتقدّم، من أمام الحضور الذين ينتصبون واقفين وينتظرون بصمت، حكمه. هو لا يعطي حكمه باستخفاف. كلّ كلمة منه موزونة. الحكم قطعي: «ثمار الذهب، إنه كتاب جميل جداً».

هيا، يجب الخضوع. إنها ساعة التخلّي، التقشّف. عليها انتزاع نفسها من كلّ ما أحبّتْه... من مواقف الدفء الحميم تلك، التي، وهي تنثني على ذاتها، كانت تترك نفسها تنساب دوماً خفيضةً أكثر نحو أيّ رطوبة شديدة فيها مسخ من العذوبة، من أيّ روائح ماسخة، مخجلة، عذبة... يجب نسيان كلّ ذلك. ها هي ذي. تتقدّم، منتصبةً تماماً ونقيّة.

أمامها يمتدّ شيء من اللون الرمادي، من البرودة... سراديب، عُقَد الأقبية، قبور، متاحف حيث يسقط نهار شاحب على البلاطات، على الأعمدة المكسورة، على النواويس الرخامية، على التماثيل ذات وضعيات التقديس الفخمة، ذات العيون المبهمة، ذات الوجوه الجامدة. هي ترغب في الابتعاد، في الهروب، في العودة إلى هناك، نحو الدفء الليّن، مع الآخرين، المقرّبين منها، أشباهها، هم يسحبونها...لكنْ اتركوني، وتستدير، فيتملّكها غضب شديد... أفلتوني إذاً، لا تتعلّقوا بي، اذهبوا، لم يعد ثمة من شيء مشترك لي معكم، فوجوهكم المُسخَّنة، وعيونكم الجائعة، والإيماءات غير اللائقة من أيديكم التي تمتد للجَسّ، وأنوفكم التي تمدّدها الروائح الماسخة الصدئة للتعفّن اللزج، كلّ هذا يرهبني. ابتعدوا. أنا أدخل. ها أنا ذي. وحيدة. نقيّة. في الصمت، في الاستجلاء، ومن على مسافة محترمة، أتأمّل.

وها هو ذا شيء ما ينبثق، شيئاً فشيئاً، من المساحات الممتدّة الكئيبة والرمادية، من الأشكال المتحجِّرة التي تنتصب في النهار الشاحب... كما لو أنه نَفَس دافئ، نفخة مألوفة، حميمة، مُطَمْئِنة... شيء ما تتعرف إليه... لقد تنفّستْه في كثير من المرّات، وشَفَطَتْه... كان هذا يعيد إليها صوراً من الدوريات، من مجلات الموضة... الصور الشخصية للدوقات، للأميرات، للملكات... كان

ذلك ينطلق من وجوههنّ المغلقة التي لا يستطيع أيّ شعور تعديل خطوطها القاسية، كأنها ثابتة إلى الأبد، من عيونهنّ التي لا يبرز منها الذكاء أبداً بنقيطات لامعة ذات انعكاسات دهنية، من جباههنّ المتعالية المتوَّجة بأكاليل لامعة من الياقوت، من الزمرّد ومن الماس... تجتاحها موجة دافئة، اهتزاز عذب، دغدغة حلوة للتواضع، لدعوة العبادة، أمام هذه الإشارات – الأكيدة، إذ إنها لا تخطئ أبداً فيها – للتمييز السامي، للأناقة الأكثر أرستقراطيةً، وهي مزيَّة الولادة السامية... منتعشةً، بالغة الحماس، منيرةً فرحاً، تتطاول... «آه كم أنت تسعدني. كم أنت على حقّ... عمل فني عظيم. هذا صحيح تماماً. أعترف بأني أنا نفسي، في البداية، استصعبتُ الأمر. لا يمكن الدخول في جوّ هذا العمل دُفعةً واحدة. لكنْ في ما بعد، يا لها من جائزة يحوزها المرء! إنه رائع. بالتأكيد، فالذين يبحثون فيه عن السيكولوجيا، عن المعيش، والذين يريدون التعرّف إلى ذواتهم فيه، الذين يريدون دوماً العثور مجدّداً على مشاعرهم الخاصة في كلّ مكان، يبقون على تعطّشهم. وهو مصنوع بشكل يلائمهم حتماً. لكنْ بالنسبة لي... كم هو جميل أن أعرف بأنك تحبّ هذا الكتاب الجميل، يا لوسيان الغالي».

ذرائع السلطة. ليس إلا. ليس ثمة من تواصل حقيقي على الإطلاق، ولا من شعور عفوي. كان يجب رؤيتها – لكنْ يا لَلحظ العاثر، يا لَعذاب لقائها – كانت تتبعه في كلّ مكان، في الكنائس، في المتاحف، غير متجرِّئة على التعبير عن رأيها، مقتربةً، منزعجةً، مرتعشةً كلّها، موشوشةً... «لكنْ، أعتقد أنها نسخة مقلَّدة، أليس كذلك؟»

نسخة مقلَّدة، كان يرغب في أنْ يصرخ في وجهها قائلاً هذا... نسخة مقلَّدة. انتباه. مزلق. ثمار الذهب، لا شيء مهماً فيه. مقلَّد. خطأ. سوف

تندمين عليه... وفي أنْ يراها تنتفض، مشدودة الظهر، تقفز جانباً مُحدِّجةً مَنْ حولها بنظرات قلقة.

لكنها لمرّة واحدة، مرتكزة بشكل صلب. في مكان جيد وآمِن من الصعب أن يجري إقصاؤها عنه. لكنْ كيف يمكن الامتناع عن دفعها، عن زحزحتها قليلاً، هيا، ثمة مكان للآخرين هنا، أليس كذلك؟... لي أيضاً، انظري... هيا، أفسحي المكان لي إذاً، لأجلس، لأتمطّط... يقدِّم شفتيه النَّهِمَتَيْن، تمتد يداه الكافرتان... لا أغراض مقدّسة بالنسبة له... يمكن الاقتراب لرؤيةٍ أكثر وضوحاً، أليس كذلك؟ أتسمحين؟ أيمكن اللمس؟... «حسناً، وأنا أقرأ هذا الكتاب الصغير، تساءلتُ– جوهرة التاج الصغيرة الحقيقية، أتفق معك في ذلك –تساءلتُ، لكنْ بحقّ السماء، ممَّ هو مصنوع إذاً، هذا الشيء هناك؟»

ينقلب إلى الخلف، يشبك يديه فوق بطنه. عينه ثابتة تنظر إلى الأمام، يتأمّل... ما من عجلة، لنأخذ وقتنا... يحبّ أن ينظر إليه عن قرب شديد... إنه مخضرم من العارفين، هاوٍ مخضرم... لا يحبّ الوقوع في الخديعة... يشعر بنظراتهم المحترمة مُرَكَّزةً عليه... «كيف أشرح لكم؟ آه بالتأكيد، لا يوجد فيه «عمق». ليس فيه حشو من التافهين، من الغوص في ما لا أدري من أيّ قاع للمستنقعات الموحلة التي تنفث نتانة خانقة، في ما لا أدري من الأواني النتنة التي يجري الغوص فيها. لا. ذلك ما لا يوجد في ثمار الذهب. لكنْ ما يوجد فيه، هو ما يصنع الروايات العظيمة. بالنسبة للروائي، أعتقد أن كلّ الفن متضمَّن في ذلك، في السمو فوق هذا الحشو المقزِّز، فوق هذا الانحلال، هذه «السيرورة الغامضة»، كما تُسمّى...حتى لو افترضنا وجودها، وهذا ما لستُ متأكّداً منه... كي أكون صريحاً، أنا لا أعتقد

ذلك... لكنْ في النهاية، لنقبل بهذا إذاً... حسناً، يتكوّن الفن تماماً من تجفيف كلّ ذلك، كي يُحوَّل إلى أرض صلبة، قاسية، يمكن البناء عليها، وخلق عمل فني فوقها. بالنسبة لي، الرواية العظيمة، تشبه مدينة سان بطرسبورغ المبنيّة على المستنقعات، تشبه مدينة البندقية التي توسّعتْ، بجهود عظيمة، فوق مياه البحيرة العكِرة.

يغلق عينيه، يصمت... مدن نبيلة ذات قباب لامعة، ذات ساحات متناغمة، ذات مساكن واسعة، وأعمدة نحيلة، وقصور مرسومة بألوان لطيفة، وأزقّة هادئة مبلّطة بأحجار قديمة لطيفة العذوبة... هناك تنزّه باستمرار، هناك منذ ولادته، عاش عمره كلّه، هناك مرّت حياته... الحياة الحقيقية... ينتصب صرح جديد، بتناغم كامل... مسكن مناسب لذوقه، لمقامه، لمقام الإنسان... يشعر فيه بأنه في بيته... يفتح عينيه وينظر إلى دائرة الوجوه المتنبِّهة... ينثني نحوها... «ثمار الذهب، يا صديقتي الغالية... أفكّر أن معلّمنا الطيب، هنا، سيكون من رأيي... إنه عمل فني، لماذا؟ بادئ ذي بدء لأنه حقيقي. كل شيء فيه صحيح بشكل خارق. أكثر واقعيةً من الحياة. منظَّم. مرتَّب. مبنيّ بمهارة. بنسب رائعة... أسلوب مرن، قادر، يحمل، كما هذه الأعمدة، الفتيات بأعداد الذهب، التي أنشدها فاليري[1]، المشاعر العظيمة، الحقيقية... تلك التي يُحِسّ بها كلّ الناس الطبيعيين، الأصحّاء، لا تلك التي يشعر بها بعض المصابين بالذهان، بعض المجانين، لا، المشاعر العظيمة الخالدة، مشاعري، مشاعركِ، يا صديقتي الغالية... أكتفي بمثال هو هذا المشهد المدهش، وأنتقيه كيفما اتفق تقريباً، فثمة غيره...

---

(١) تذكير بـ «نشيد الأعمدة» للشاعر الفرنسي الرمزي بول فاليري (١٨٧١-١٩٤٥). (م).

لا يوجد بالنسبة لي ما يماثله إلا ذاك الموجود في صالون آل رينال، بين السيدة دي رينال وجوليان[1]... إنها القوة عينها، الاقتضاب عينه... هذه الأناقة، هذا الشكل المتناسق شديد النقاء... ببضع كلمات قيل كل شيء... يحضر المرء ميلاد الحُبّ... تذكرين... ذاك المشهد على الشرفة الفسيحة، على ضفاف البحيرة، في موشي[2]، حين اقشعرّ جسم إستيل ولم أعد أذكر... روبير أو جيلبير... نعم، إنه هو، جيلبير نهض دون أن ينبس ببنت شفة وذهب ليحضر لها الشال. وبهذه الحركة البسيطة، قيل كل شيء، لكنْ يجب رؤية كيف كُتِبَ ذلك. صفحات كتّابنا الذين يخوضون في الصعوبات، الذين «يُفَلّون البراغيث»، ما كانت لتنجح مطلقاً في تمرير كل ذلك... بالاستعانة بلا شيء... بالصمت... بأمور طارئة... بتنويعات، بتلوينات متنوّعة... تلاوين قوس قزح الأكثر رهافةً المنقولة إلينا من خلال العلاقة الدقيقة بين الكلمات... ليس ثمة من تحليل مطلقاً. هو مصنوع من لا شيء. ويشعر القارئ بكلّ شيء، يفهمه. آه كما ترين، إنها لحظات شبيهة بتلك اللحظات، بتلك الثواني من الحقيقة التي تصنع أعظم الكتب».

إنه هنا. ما يبحثْنَ عنه دوماً، مفتِّشاتٍ بِنَهَمٍ في كلّ ما يمرّ تحت أياديهنّ، في كلّ ما يُمنَح لهنّ، ما يُحَضَّر خصّيصاً لهنّ... من أفلام، روايات، سير ذاتية، مذكّرات، أسرار أخواتهنّ الصغيرات المعذَّبات، المتعاطفات المشفِقات، نصائح، أمثلة من أخواتهنّ الكبيرات الأكثر سعادةً وقوةً، المنتصِرات... مقتطفات ينتزعْنَها ويحملْنَها لتفحّصها بعيداً، خائفات، وجِلات قليلاً، دون ثقة بأنفسهنّ...

---

(١) إشارة إلى بطَلَيْ رواية ستاندال، «الأحمر والأسود». (م).

(٢) تقع موشي في منطقة لواز شمالي فرنسا. (م).

ولكنْ هذه المرّة... يمدُدْنَ رقابهنّ، ويلمع اشتهاء مكتوم في عيونهنّ... لا شكوك، لا مخاوف بعد الآن... كلّ شيء هنا مضمون بأنه من النوعية الممتازة، يبحث ألطف الناس وأرهفهم بشكل دقيق عنه، يستطعْنَ أخذ كل شيء، يشجعهنّ الجميع، ويُعجَبون بذوقهنّ الرفيع، كلّ ما يليق بهنّ ويناسبهنّ.

بحيرة كبيرة ذات ضفاف ضبابية مزركشة برؤوس أشجار فراغونارد[1]، و واتّو[2]. موجات لطيفة تتلألأ في ضوء القمر. تُسمَع أصوات تضارب أمواج المياه على دَرَجات الرخام. على الشرفة الفسيحة، أمام الدرابزون الرخاميّ المنخفض العتيق، الأشكال الداكنة للناس الجالسين، لرجل واقف ينحني وينشر فوق عنق نحيل يعلوه شَعر مرفوع على شكل خوذة، فوق كتفين عاريين ضعيفين، شالاً من الصوف الأبيض مؤطَّراً بالشراشيب. ينثني الرأس ذو الشَّعر المنظَّم بأناقة إلى الخلف قليلاً، وتنحني الرقبة، وترتفع الكتفان بحركة يخطّها الإذعان، ويضخّمها ويميل بها الخضوع الحنون، الاعتراف بالجميل، الهجْر...

ثمة صدمة جعلتْها تنتفض، ألمٌ يمزّقها. ما الذي لمستْه هناك؟ ما الذي أمسكتْ به من دون حَذَر؟ حركة الذراع هذه التي تنشر المعطف المطوي

---

(١) جان هونوري فراغونارد (– ١٨٠٦)، رسام فرنسي وفنان في فن الـ روكوكو. يتميّز بمذهب المتعة. (م).

(٢) أنطوان واتّو (١٦٨٤– ١٧٢١)، رسام فرنسي في فن الـ روكوكو. تتميّز الأشجار، في لوحات هذين الفنّانين المذكورين، بكثافتها وانحناء رؤوسها، وكأنّ نسائم الهواء تتلاعب بها. من مزايا رسومات واتّو أيضاً، هي أنه كان يستلهم الكوميديا ديل آرتيه، فيرسم المسرح في لوحاته. (م).

على طول مسند مقعد السيارة، على طول طيّات قبعة المعطف المرخيّة، خلف الكتفين النحيلتين المرتفعتين... ينثني الرأس إلى الخلف، ويستسلم العنق إلى الطيّات الناعمة... يضخّم الحنان والإذعان الصامت هذه الحركة، يرتعش، مُحترِماً القَسَم، الاتفاقات السرّية المنعقدة بينهما بكتمان، هناك، في حضوره، أمام ناظريه...

هذه الحركة، كسلك كهربائي لا يزال معزولاً بشكل جيد حتى هذه اللحظة الراهنة، مفصولاً، غير مؤذٍ مطلقاً، استعملتْه لمرات عديدة دون أدنى شعور بالخطر، هذه الحركة، كسلك كهربائي، أضحى فجأةً، دون عازل، موصولاً بمولِّد ذي استطاعة قوية، فهزَّها، وأحرقها... اختار الدماغُ الكامل للإله العليم، من بين كل الحركات الممكنة، هذه الحركة – الناقل الأفضل ليحمل، لينقل ما يجتاحها من رأسها حتى أخمص قدميها بقوة لا تقاوَم، فيصعقها: هو ميلاد الحُبّ.

القلق من الموت يجعل رؤيتها ضبابية، تتساجل بضعف. «ولكنْ هذا ليس صحيحاً. أنا لا أعتقد...» فليساعدها أحد، هي تموت، حياتها تنتهي، فليأتِ أحد لنجدتها... «أنا أطلب منك ذلك، قل لي ما هي الحقيقة العميقة التي تراها هناك...» تستجمع كلّ قواها، تصرخ... «هذا خطأ. أنا أقول لك ذلك. خطأ فادح. إنها هي، الحقيقة الخطأ للروايات. حركة وضع الشال تلك على كتفَيْ امرأة تشعر بالبرد، هذا يمكن له أن يحمل ألف معنى... أو لا شيء. لطف فقط، لا أكثر... خذ مثلاً، بيير، زوجي، لكنّ هذه الحركة شيء يفعله بطبيعية كاملة، لأيٍّ كان، فهو يظهر شديد الاهتمام بكل الناس، إنه جِدّ لطيف... لكنّ الروائيين يختارون أيّ شيء... بمحض المصادفة...

حركة لاحظوها، كان يمكن لها أن تعني أيّ شيء، يأخذونها ويقولون لبعضهم بعضاً: ها هي ذي، سوف تُسعِد الناس، هذا ما يلزمني، سيكون ملائماً هنا... أيّ حركة، حفظوها... ستعني ميلاد الحبّ الكبير. وهكذا. تمّ الأمر. يُصدَّق. صلب كالحديد. هي حظوة الكتابة... نبرة الكاتب الثابتة... يؤخَذ المرء بها من دون تفكير... يعتقد المرء بأنه، هو على أتمّ المعرفة. ويُقال: لكنْ كم هو صحيح هذا. وهو موجود في الحياة... بالتأكيد موجود فيها، بما أنه وضِعَ فيها... بما أننا نرى الحياة من خلال الروايات... ثمة أناس مطبوعون إلى الأبد بهذه الحقائق. خذ مثلاً، أنا كنت أعرف فتاة مسكينة... تصوّر... لأنها كانت قد رأت في رواية «حياة» لِـ موباسان[1]...»

كيف تجرؤ؟ هي تفقد عقلها... هي، شديدة الخجل، الصامتة دوماً، لماذا احتدّتْ هكذا؟ ماذا دهاها؟... «طفلتي الغالية، هذا مؤثِّر جداً، ينفجر الصوت الجاف، تسخر الضحكة الصغيرة الجامدة، من هؤلاء الناس الذين تتحدثين عنهم، الذين يرون حيواتهم الخاصة من خلال الروايات. لكنْ هذا خطؤهم هم، لا خطأ الروائي. هو بالضبط، كنتِ قد فهمتِني بشكل خطأ، وبسبب ذلك قلتُ إن هذه الحركة كانت مدهشة في حقيقتها – هو، الروائي، إنْ كان روائياً بحق، فإنه يُدخِل كل حركة ضمن مجموعة تعقيدات تعطيها معناها كاملاً. أيّ حركة منفصلة عن هذه المجموعة، بحدّ ذاتها لا تعني شيئاً، هذا بدهيّ. لا شيء، في عمل فني، اعذريني لإيضاحي هذه الحقيقة بهذا الشكل الفجّ، لا شيء يمكن

---

(١) غي دي موباسان (١٨٥٠ - ١٨٩٣)، كاتب وروائي فرنسي وأحد آباء القصة القصيرة الحديثة. حياة أو الحقيقة المتواضعة، هي روايته الأولى، وقد صدرت في العام ١٨٨٣ (م).

له أن يكون منعزلاً. إنه كلٌّ متناسق: تقود كلُّ جزئية كافة الجزئيات الأخرى كلّها وتلك تقودها أيضاً. إن الذين يقرؤون الروايات كتلك الفتاة المسكينة التي تتحدثين عنها لا يحصلون إلا على ما يستحقّونه. ما عندهم أدنى مفهوم عمّا هو العمل الفني. ولا أقلّ فكرة ممكنة عنه...»

لكنْ فات الأوان، لا شيء يوقفهنّ الآن، لقد انطلقْنَ. كُسِرَ السدّ الهشّ، فاندفعْنَ إلى الهاوية، تدافعْنَ، تزاحَمْنَ، نقَّبْنَ... كما في تصفيات بيوت الأزياء الكبيرة، سحبْنَ الثياب نحوهنّ، خرجْنَ وجرّبْنَ... أهي على قياسهنّ؟ وهنّ يضيّقْنَها قليلاً... تفصيل الثياب الجديد هذا غريب بعض الشيء، مُحيِّر... لكنْ يجب التأقلم معه، سوف يتأقْلَمْنَ معه... أرأيت؟ - نعم، نعم، أعدْ قراءته، أنا أؤكّد لك... – أنا أيضاً فوجئتُ بها... الشابة، البطلة، إستيل، ساقاها ضخمتان. – لكنْ أين؟ لا أذكر... – نعم، نعم، هذا صحيح، تذكّرْ، حين كانا على الرصيف المنخفض أمام المرآب، تماماً بعد ذلك المشهد على الشرفة الفسيحة... قيل ذلك بالتفصيل: «كان ينظر إلى ساقيها الثقيلتَيْن، بالرسغَيْن الغليظَيْن...» تجول نظراتها الحالمة في قاعات المتحف، في المعابد القديمة، تتسلّق الأكروبول، تتحسّس خطوط جسد إلهة الجَمال فينوس، وإلهة الصيد ديانا، وتماثيل النساء - الأعمدة حاملات الإفريز في المعبد، تهرب نحو الحلبات التي تتقدّم فيها بِـ «رشاقة مَلَكيّة»، خيول السباق على أرسُغها المُختلجة... يرفعْنَ رؤوسهنّ، قلقات، يتردّدْنَ... يحرّكْنَها بحركة مفاجئة... «لمارسيل الحق في هذا... فما هو جيّد في رواية ما...»

ليبتعدْنَ. ليُبعثَر هذا القطيع الشارد. وليُحضَر المذنب إليَّ. هو، هناك، نعم أنت. أنت موقوف. لنضعْ الأصفاد في يديه. مُدَّ قبضتَيْ يديك. منذ فترة

طويلة وأنا أراقبك، وأُراكِم ضدك مستندات الإثبات. هذه المرّة أنت في قبضتي. لقد ضُبِطتَ متلبِّساً. لنتكلّمْ قليلاً هنا بسرّية تامة عن هذه الحركة التي، حسب رأيك، ترسم العواطف العظيمة بمنتهى البساطة الرائعة. هذه الحركة مع الشال، التي «تقول كلّ شيء»، بمنتهى الفن، بأفضلَ مما يقوله كتاب كامل. أنت أهديتهم ذلك. أنت جعلتهم يتشرّبون هذا الدواء المسموم. أُعجِبْتُ بثقتك بنفسك، بجسارتك. أنتَ جِدّ متأكّد من تهرّبك من العقوبة، فأنت لا تفوِّت الفرصة أبداً على أن تضرب ضربتك. لكنْ هاك – لا يمكن توقُّع كلّ شيء، أليس كذلك؟ - ها هو ذا العائق، الحادث غير المتوقَّع. واحدة من الضحايا... وأنا معجب بقوتها، بمزاجها القادر... مثل راسبوتين[1]، تقاوم بإعجاز، لم يفعل الدواء القاتل فعله فيها... انتصبت، صرخت: ما هذا؟ ما هذا الذي جعلتني أمتصّه؟ على ماذا يحتوي؟ لكنّ هذا ضار، هذا خطر... هي حقيقة خطأ... إنه شيء لا معنى له مطلقاً، ويمكن له أن يعني أيّ شيء... هي ترفضه، لا تريده. وإذاً أنت تحاول التصرّف بشكل آخر، فتُخرِج عتادك للتخدير ولِكَمِّ الأفواه: بالتأكيد، هذه الحركة في حدّ ذاتها ليست بالأمر المهم، ثمة فقط مجموعة شديدة التعقيد، ثمة البناء. إنّ كلّ ذلك هو الذي يعطي لهذه الحركة معناها، كلّ هذا التطويل، هذا الرنين... آه، لأنّ العمل الفني... نظرتك في مثل هذه الحالة تصبح مبهمة، حالمة، فتُرى مبتعِداً نحو أيّ مناطق مجهولة،

---

(١) غريغوري يافيموفيتش راسبوتين **(١٨٦٩ – ١٩١٦)**، راهب روسي. أصبح مقرّباً من الأسرة المالكة في سانت بطرسبرغ. اقتنع القيصر وزوجته بأنه قديس، وعاش ناصحاً لهما في القصر إبان سبعة أعوام. كانت أخلاقه غريبة. تمّت محاولة اغتياله بالسمّ، لكنه لم يؤثّر فيه، فأُطلِقَت النار عليه عدة مرّات؛ ولم يمتْ إلا بعد أن أُلقيَ في النهر مُقَيَّداً، فمات غرقاً في نهاية الأمر. **(م)**.

أيّ مقاطعات غامضة، غريبة!... وهنّ، كأنهنّ يهلوسْنَ، وكلهم مُخَدَّرون منك، منتفِضون... لكنْ أين، أسألك عن هذا، أريد أن أعرفه، أين تسحبهم؟ أيّ تطويل لا يوصف، أيّ إشعاع شِعريّ يستطيعون رؤيته حول تلك، تلك البضاعة الرخيصة التي أغرقت السوق، تلك المقالة السوقية السيئة؟ أرني إياها. إنْ نجحت في اكتشاف جزئية واحدة من شيء لا يُمَسّ، يرتعش، يحيا، فعن ذلك كان يجب الحديث، وكان يجب تبيان ذلك لهم لا هذه البضاعة السيئة – كان عليك إخفاؤها. لا «بناء» مطلقاً تستطيع إنقاذه: حجر إسمنتي سيّئ لا يمكن إدخاله، دون تشويهه، في بناء من حجر مصقول جميل. لكني أعرف بما ستجيب. أنا أعرفك. قلت لك ذلك: هذه المرّة أنا أمسك بك. ثمة أشياء، أليس كذلك؟... ستؤكّد ذلك... ثمة كلّ هذه الأشياء التي لا تستطيع الكلمات التعبير عنها– كان عليّ معرفة ذلك، أنا البهيم المسكين... أشياء لا يمكن تصوّرها، تنويعات لونية، أشياء ملوّنة بألوان قوس قزح... لكنْ هناك أنت لن تتهرّب مني. أنت نفسك قلت ذلك، أكّدته: من دون الكلمات، لا يوجد شيء. الكلمات، هي الأحاسيس عينها التي تنبثق، التي تبدأ تتحرَّك. حتى إنك تذهب أبعد من هذا، لا تنكر ذلك، لقد سمعتك: الكلمة تخلق – ولك الحق في هذا، فذلك يمكن له أن يحدث أحياناً– تستطيع الكلمة أن تثير بدورها الأحاسيس لدى الكاتب. وإذاً، أين كانت هذه الكلمات؟ أين؟ في أي مكان؟ أرني إيّاها. أرني هذه الصلات الدقيقة للكلمات، التي كانت تعبّر عن هذه المشاعر التي لا توصف. أين؟ كيف؟ لكنّ ذلك لن يدوم بعد الآن، أتسمعني؟ يجب منعك من الإيذاء. أنت الكذب، أنت الشرّ. يجب نزعك، سأمسك بخِناقك، سأستفزّك، سأُشْهِد الناس كلَّهم، سأصرخ...

لكنْ كما في الكوابيس، لم يسمع أيّ صوت يخرج من حَلْقه. يريد الركض نحو الآخر، ليتشاجر معه، لكنه يشعر بأنه لا يتحرّك. صراخه الأبكم، إيماءاته التي يحاول عبثاً عرضها خارجاً، كما تُقذَف جزيئات غير مرئية على جسم قاسٍ، على الآخر، المنتصب هناك، أمامه، فتعاود القفز، لتقع من جديد عليه، تغوص فيه، تترعه، فيتألّم... يلتفت، ينثني إلى يمينه، ينحني، يسمع أخيراً صوته – بصعوبة يخرج صوت خفيض جداً ونحيل، همسٌ... «أنا عليّ أن أقول إن هذه الحركة، هذه الحركة مع الشال... يبدو لي أنّ حركة بتلك التفاهة...»

لكنه كان تحت المراقبة. هو مشتبه به... ما الذي يحوكه الآن من مناورات مخادعة؟ ما هو الذي لا يزال يحوكه هناك، بهذا المظهر المتآمِر، وهو منحنٍ نحو جارته، ما الذي يهمس به في أذنها؟ صوت قاسٍ يناديه من الطرف الآخر من الطاولة: «ما الذي تحكيه، هناك؟ قلْ لنا ذلك إذاً. نحن فضوليون. ما الذي اكتشفته أيضاً بحثاً في هذا الكتاب الذي كلّ شيء فيه رائع؟ ما الذي لا تحبه؟»

التفتت كلّ الرؤوس نحوه، هو يشعر، بأنهم يتوجّهون إليه بنظراتهم، مستندين عليه، فيعمل بعض الحركات البسيطة ليتنصّل منهم... «لكنْ لا شيء... أنا لا أشكِّك في قيمة ثمار الذهب. إنه كتاب جميل جداً، أنا متفق معك على ذلك. كنت أريد أن أقول فقط إنّ هذه الحركة، بالضبط، ربما هي ليست... ما كان يمكن لي أن أختاره أنا... لإظهار... هذه الحركة، يبدو لي، بالأحرى، أنها تشوّه المنظر... ثمة في مكان آخر...»

قوات حفظ النظام، التي تنبّهت، تدخّلت على الفور... يدٌ توضع عليه... «آه لا، هنري، لا تحاول التفريق... لمارسيل الحق في هذا تماماً:

العمل الفني، إنه يشكّل كلاً واحداً. وهذه الحركة، كما وصِفَت في هذا الكتاب، مأخوذة من ضمن سياقها، لها كثافة معيّنة. إنها كاملة».

الآن هم متنبِّهون. ليس هو الوحيد. ثمة آخرون مختبئون، مُعانِدون مُتكَتِّمون، فاقِدو العَزْم... يجري التفتيش، يجري التنقيب... ذاك، هناك، عند ذاك، منذ بعض الوقت كانوا يشعرون بذلك، فمِنْ ذاك الذي كان صامتاً، ينطلق شيء ما، هم، الذين كانوا موجودين قربه، منزعجون بازدياد أكبر، كما لو أنّ الهواء حولهم قد أضحى أكثر كثافةً، فكانوا منزعجين، بطيئي الحركة... من هناك كان يأتي ذلك، هم متأكّدون من هذا الآن: من هذه الانبعاثات غير المرئية التي كانت تتسلّل من صمته كغاز ثقيل.

تثبّت عين صفراء لطائر من الجوارح نظرتَها عليه، وجه متطاول أصفر، شديد النحول، ذو شَعر خفيف ناعم مُسَطَّح إلى الخلف، ذو صدغين محفورين، وجه متفَحِّص يتغضَّن بتعبير من الازدراء: «وأنت، جان لابوري، أنت صامت... جان لابوري ينصت إلينا ولا يقول شيئاً. لكنْ صدّقني، إنه يفكّر فيه أكثر منّا. آه، بالتأكيد، جان لابوري لا يحبّ أبداً ثمار الذهب. أنا متأكّد من هذا، أنا مستعدّ للمراهنة على ذلك».

تثقل كاهله ظنون فظيعة. سِجِلّ سوابقه العدلية يتضمّن اتهاماً خطيراً. هو يعرف تماماً أنهم يعيدون الآن فتح ملفّه. بعد لحظة سيكتشفون، سيرون الأمر يبرز، منتَزَعاً من النسيان، معروضاً أمام عيونهم... ها هم أولاء... يرونه، إنه في قبضتي، أنا أمسك به، إنه ذاك... الوجه بلا انفعال، العين جامدة، كما يجري في اللعبة المكتومة لإخفاء الغرض عن اللاعب، يمرّرون ذلك بصمت بين بعضهم بعضاً... أنا أقدّمه لكم... هل التقطتموه؟

هل أمسكتم به؟ يمرّ بينهم تيار غير مرئي، من التعاطف، من التضامن، من التواطؤ اللذيذ... نعم، أليس كذلك، هو ذاك بالضبط؟ أأنت من رأيي؟ أنا، تصوّر، نسيتُه، لم أعد أفكّر فيه، وها هو ذا يعود إليّ... إنه من هناك، بالتأكيد، أنت تشعر بذلك أيضاً، إنه من هناك يأتي كلّ شيء... نعم، من المستحيل لسوء الحظ الشك في ذلك... ذاك هو جسم الجريمة... هذا الكتاب الصغير، نعم، هذا الكتيّب، كان قد أرسله لي... لا بُدّ أنه وصلك أيضاً... أتراه؟... أنا أراه... هذا الكتاب الصغير بجلدته الرمادية الفاتحة، المنشور عند هذا الناشر... أيّ ناشر؟... لكني أيضاً، لا أذكره... لا أهمية للأمر، هو غير معروف، لقد اختفى منذ زمن طويل... كان ينشر على حساب الكاتب... أكان في ذلك مصلحة للكاتب؟...بالتأكيد، أتشكّ في ذلك؟ لكنّ الناشر، بالرغم من ذلك، أتعرف هذا؟... نعم، أعرفه، لقد أتلف الطبعة كلها، وعاد ليبيع كل الطبعة عن طريق بيع الورق... نسختي أنا، بعد نزع الإهداء، ترقد في مكان ما على الغبار عند بائع كتب قديمة، على الأرصفة... لم يصدر أي صدى لتعليق ما من أيّ مكان، من دون أدنى اهتمام بها... ثمة ملحوظة تفصيلية، مع ذلك، يبدو لي... لا، لا شيء: كانت تلك دعاية الناشر... حوله، تدور كلماتهم البكماء. حاسة سمعه الحادّة، التي أضحت أكثر حدّة منذ زمن طويل، التقطتْها مثل حفيف لا يمكن إدراكه، خشْخشة صفحات رقيقة ترفعها أصابعهم بلطف شديد... لكنْ ماذا كان يوجد بالتحديد في هذا الكتاب؟ أتذكر؟ عَمَّ كان يتحدّث؟...

لا، لا شيء، لم يحدث شيء، لا تبحثوا في الموضوع، أتوسّل إليكم، لا تلمسوه، ارفعوا أيديكم عنه، هو يحاول إبعادهم بهدوء، بلطف، يحاول تهدئتهم... «لا، لا أعرف... لم أكن أقول شيئاً لأني كنت أصغي... هذا يهمّني

كثيراً... لا أعرف لماذا تقول هذا... أنا، على العكس، ثمار الذهب...»
ليطمئنّوا، لقد أخطؤوا، لا يوجد شيء، لا شيء هنا يمكن له أن يثير اهتمامهم، فلا يوجد أيّ مستند إثبات، ولا أيّ جسم للجريمة... فماذا سيتخيّلون؟ لا شيء فيه، منذ زمن طويل كلّ شيء تمّ تنظيفه، غسله، تطهيره، لم يبقَ أيّ أثر في أيّ مكان، ليس ثمة من جزئية يمكن أن يتسلّل شيء ما من خلالها لإزعاجهم، لا أيّ انبعاث مُغرِض، ولا أيّ ضغينة مكتومة، ولا أيّ رغبة منحطّة، ولا أيّ مقارنة مضحكة... ولكنْ مقارنة بماذا، أنا أسألك، بما أنه ليس ثمة من شيء قد بقيَ، يستطيع طمأنتهم على ذلك، فهو لم يُعِدِ الكرّة قط، ليعلموا هذا، لقد تاب، أضحى سلوكه جيداً، لا إساءة واحدة إطلاقاً، ولا أدنى انحراف، حتى إنه لا يفكّر في ذلك، لم يعد يهتم بذلك مطلقاً، نقيّ، نقيّ جداً، كما لو أنه أُفرِغَ من ذاته – مُحتَضِن فارغ سوف يمتلئ تماماً بما يريدون وضعه فيه، محتوٍ مرن سوف يقدر على احتواء تامّ لمحدِّدات هذا الغرض الرائع بشكل كامل، دون تشويهها... «ثمار الذهب... أستمتع بقراءته... لم أقرأ منه سوى مقاطع... لكنْ بالتأكيد يجب عليّ...أنا متأكِّد من أني سوف أحبّه».

لا يمكن لنغمة الهدوء واللامبالاة في نبرة صوته خداع الآخرين. يتملّصون منه، بعد عودة السكينة إليهم، ويهجرونه...

وهو، الآن، بعيداً عنهم، في هذه العزلة التي لن يعود أحد للبحث عنه فيها، هو، منسحِباً بعيداً عن الاستعراض، عن الفخامة وعن الصراع في العالم، مرتدياً المعطف اللبّاد، لابساً قميصاً من وبر الماعز، يُخرج تماثيل الآلهة من مخابئها، يجمع الصور المقدسة المنزوعة، يعيد إشعال القنديل الذي كان هو نفسه قد أطفأه ويركع، بعينين ثابتتين على الشعلة الصغيرة المتراقصة.

«ثمار الذهب، إنه أفضل كتاب كُتِبَ منذ خمسة عشر عاماً».

الوجه ساكن، النظرة تحدّق في شيء ما في البعيد. النبرة هي لشخص يشهد على واقعة ما، يعلن حقيقة ما.

تتقدّم الحقيقة التي لا تقاوَم، ساحقةً كلّ شيء على دربها: «ثمار الذهب، إنه أفضل كتاب كُتِبَ منذ خمسة عشر عاماً».

هذه المرّة، ليس المستهدَف هم البسطاء، والبؤساء دون عزم، مثل ذاك، هناك، الذي لا يزال يرتجف، الذي خضع من أول إشارة تهديد، فنكّس سلاحه، لكنّ الأقوياء، لكنّ المتفاخرين، القادرين، لكنّ هؤلاء الذين، منذ لحظة فقط، هم من المستحيل المساس بهم، كانوا يرفلون على العروش، جالسين براحتهم في الأمان، فوق كلّ المقارنات، يوزّعون، برِفق، التشجيع، المديح... إنه أنا، أنا مَنْ تأثّرتُ، ووقعتُ أرضاً، أنا الذي كانت تبجّلني مؤخراً فقط تلك البهيمة المستَعبَدة، أنا الذي كانت تسجد أمامه... «أنت الأعظم، الأقوى... روايتك الأخيرة، يا لَكمالها... لقد تجاوزت ذاتك... إنها أفضل ما أصدرته...»

كيف، وفي أيّ ليل، جرى الاستيلاء على السلطة، فيما هو كان نائماً بسكينة؟ متى انتقل الخائن إلى معسكر المغتصِب؟ هو مجرَّد من كلّ شيء، فاقد لسمعته وحقوقه، قد أُعيدَ إلى مستواه، هو مُهَدَّد بالموت، تتلألأ حبّات العَرَق على جبينه، تكاد ساقاه لا تحملانه، يشعر بالشحوب، ينهار معنوياً... لكنْ خاصةً، عليه ألا يُظهِرَ شيئاً، عليه ألا يجذب الانتباه إليه، يجب أن يعود لتمالُك نفسه بأيّ ثمن، أن يبقى ثابت الأعصاب. مرفوع الرأس. سمات وجهه مبهَمة. فارغ النظرة. من دون أيّ رعشة. وإلا، فإنْ هم رأوا، هؤلاء الحاضرون، المتحجّرون، إنْ هم أدركوا أدنى حركة من الاضطراب النفسي، من العذاب،

من الاستحياء، فإنهم، مَنْ تصل إليهم فوراً أدنى رعشة، ومَنْ تتضخّم فيهم لتصبح موجات لا تني تتوسّع، سوف يشرعون بالتحرّك، سوف يحاولون التوسّط بطريقة خرقاء، صارخين طلباً للعفو عنهم، عنه، طلباً للشفقة... «آه، هنا أظنّ بأنك تبالغ. أنا أجد أنّ ثمة كتباً أخرى جميلة... أعرف تماماً أن الأشخاص الموجودين مُبْعَدون ومُستثنون، لكنْ مع ذلك، يجب ألا ننسى أمراً، فثمة كتب روبير هونييه...» وهكذا يجري استعجال خسارته.

أمام ما يمكن أن يحدث إذاً، كلّ شيء داخله يتقلّص، ينكمش، كل نقطة في جلده يشوّكها الرعب. بعد أن تنبّهوا لهذه الدعوات، ملتفتين نحوه بنظراتهم، مدركين قشعريرته، بأيّ غضب فَرِح قد تقبض عليه شرطة الغاصِب الوحشية...آخرون، هم منجذبون لارتعاشاته المثيرة للشفقة، قد يأتون لمساعدتهم، فيجري الإجهاز دوماً على الجرحى، إنها القاعدة هنا، ما من شفقة: «حسناً، يجب الاعتراف بذلك، أحب كثيراً كتب روبير هونييه، أو جان دوناند[1]، بالتأكيد... لكني يجب أن أعترف... ثمار الذهب، حقاً، هو عمل فني صافٍ... سوف يعيش إلى ثلاثمئة سنة... لا، حقاً، ثمار الذهب، إنه شيء فريد من نوعه تماماً. هو نوع من المعجزة».

نحن الشعب المُهمَل البسيط، نحن الناس الشجعان الموجودين هناك بالمصادفة، وقد فات الأوان على الهرب، نحن علينا ألا ننظر وألا نشيح بنظرنا. علينا أن نكون عُمياً، صُمّاً، ساكنين تماماً، قساةً، متحجّرين، أشياء موضوعة هناك بترتيب، عرائس محشيّة تِبْناً بوجوه خزفية وكرات زجاجية

(١) جان دوناند (١٨٧٧– ١٩٤٢)، فنّان فرنسي من أصل سويسري. من أهم مؤسسي فن الديكور. (م).

بدل العيون. حركة واحدة، أضعف رفرفة، وكما تستيقظ الجميلة النائمة عند انتهاء فعل السحر، كلّ شيء حولنا قد ينشط، قد تدور أحداث مشهد غير مُحتَمَل أمام أعيننا. قد نرى زعماء محترمين، رتبهم، أوسِمتهم منزوعة عنهم، سيوفهم مكسورة، قد نرى جيوشاً على الجبهة، ويكاد الوجه أن يكون شاحباً زيادة عن اللازم قليلاً، من دون تعبير كأنه غائب، بينما في الصمت الرهيب لا تزال كلّ كلمة من الحكم تتردّد بقوة: «ثمار الذهب، إنه أفضل كتاب كُتِبَ منذ خمسة عشر عاماً».

لكنها ليست جبانة مثلهم. هي لا تريد أن تبدو، كَذِباً، كأنها مطمئنّة مثلهم من هذا المظهر البريء، هذا المظهر غير الواعي الذي يتّخذه هو، كأنه يتحدّث إلى نفسه، ينسى كلّ ما يحيط به، لا يفكّر في مضايقة أحد، يمتنع عن أيّ مقارنة، يكتفي ببساطة شديدة، بصفاء شديد، بنقاء تام وبسهولة بملاحظة – وهذا ما عليه فعله - أنّ ثمة شيئاً ما هناك، يُفرَض على النظر، أنّ شيئاً ما لا يمكن تجنّبه، لا يمكن تجاوزه، وكلّ واحد – شاء ذلك أم أبى – عليه الانحناء أمامه، هذه الواقعة التي لا تُناقَش، هذه الحقيقة: ثمار الذهب، إنه أفضل كتاب كُتِبَ منذ خمسة عشر عاماً.

بالنسبة لها إنه شبه فرَح، نوع من المتعة ذات العذوبة الكامدة في معرفتها الجيدة له، في رؤية وجهه كأنه محميّ بصندوقه الصلب، لا يُكشَف فيه عن شيء إلا عن عدم التحيّز الأكثر هدوءاً، عن اللامبالاة الأكثر كمالاً، هو يتجسّس عليهم، متمتّعاً بفاعلية ضرباته التي لا يمكن لأحد توقّعها، التي لا يدري أحد كيفية تجنّبها، مسروراً بمراقبة ضحاياه، متفاجئين بالسرعة، بشراسة الهجوم، وهم يرتجفون، يحاولون جاهدين، بائسين، البقاء

واقفين، وهم يكبتون تقلّصاتهم من شدة الألم، وهم يكظمون تأوّهاتهم، - وبارتباك الحاضرين.

هذا يسلّيه، هي تعرف ذلك، بأنْ يَرى ولا يُرى – يعتقد نفسه بعيداً عن الأنظار تماماً - هؤلاء الذين كانوا في غاية الهدوء منذ لحظة فقط، في غاية الثقة بأنفسهم، كانوا مُسترخين، يبتسمون للمشهد الكوميدي الخاص بالضعفاء الملاحَقين في جحورهم، هذا يسلّيه بأنْ يراهم يقاومون بشكل مثير للشفقة، وقد جرى اصطيادهم بدورهم. إنْ قاوموا، المساكين، إنْ حاولوا التملّص، فلن ينجحوا إلا في الغرق أكثر فأكثر، فلا شيء يمكن عمله، لقد خسروا.

لكنها لن تتركهم كما يفعل كلّ هؤلاء الجبناء. لن تصطنع عدم رؤيتها لأيّ شيء. هي تمعن النظر، تنثني على الضحية المنهكة، تماماً إلى الأسفل، قريبة جداً منها، هي لا تخشى من أن ينفر باتجاهها شيء كريه، مقرف، ويرشّها. هي مقدامة، مستَفَزّةً بشعور عميق بالغضب والاحتقار، مزدريةً كلّ المخاطر، جاهزةً لتقديم كلّ التضحيات، هي، في غاية الضعف، بيدين فارغتين، تنقضّ على المعتدي، هي تقدّم ذاتها، هي مستعدّة لأن تحيد ضرباته فتتلقّاها بنفسها، تريد انتزاع سلاحه منه: «حسناً... صوتها يرتجف قليلاً... حسناً، يمكنك أن تقول ما تشاء، ولكنْ أنا، ثمار الذهب، أنا لا أحبّ هذا. أجد هذا مُمِلاً. إنه غامض، إنه مستعصٍ على الفهم. ثمة بعض من المقاطع كان عليّ استدراك محتواه لثلاث مرات...هي تشعر بمرور رعشة عرفان لا تكاد تُدرَك عند المساكين الأسرى المغلّلين، رعشة فرح، وشيء من الأمل الخائف... كان عليّ استدراك محتواه لثلاث مرات، ولستُ الوحيدة... بارّا

شديد الحساسية مع ذلك، وخارق الذكاء، أكثر ذكاءً مني بكثير، قد اعترف لي بأنه لم يكن يرى شيئاً مهماً فيه. ربما يكون عملاً عبقرياً، لكنْ في النهاية... أنا أفضّل أن يبرهن لي أحدهم على ذلك، والكتاب متوافر».

الكتاب متوافر. ليجري إظهاره لهم. هذا كلّ ما يطلبونه. لقد عرفتْ، بقوة، بشجاعة تُعجبهم، كيفية التعبير بهذه الكلمات فقط عن مطالباتهم المتواضعة. ليُشرَح لهم، والكتاب متوافر. لينهض أحدهم الآن، ليذهب لأخذ هذا الكتاب، ثمار الذهب، من على أحد رفوف المكتبة، ولتُفتَح، هنا، أمام الجميع، في النور الساطع، واحدة من الصفحات، لا يهمّ أيّ صفحة، ولنجعلهم يرون، ولنتقاسم معهم... شرح نصوص، كما في الصف؟ أوصلتم إلى هذا الحدّ؟ أهذا هو ما يلزمكم؟ نعم، هو هذا ما يلزمهم، لقد وصلوا إلى هذا الحدّ. هم يوافقون على أن يعودوا ليصبحوا أطفالاً صغاراً. هم مجرَّدون من كلّ شيء تماماً، في غاية التواضع... حتى هذه المادة الضحلة، التي لا طعم لها التي كانوا يتشرّبونها بقرف في الصف، هم مستعدّون اليوم للاكتفاء بها، وهم يطلبونها... بالتأكيد، يعرفون ذلك، تلك الأشياء لا تُفَسَّر، لا يمكن تفسير ذلك، الشِّعر، الأشياء المسكوت عنها، الألغاز الكبرى، الأعماق وشبه الظلمات حيث يدرك الآخرون، المحظيّون، الأغنياء، نبض الحياة... هم يعرفون أنه سيكون عليهم الاكتفاء بالخطوط الجرداء، بالكلمات التي هي بالنسبة لما يراه الآخرون، بمنزلة اسم مسجَّل على سهم دالّ على البلد الذي يمثّله، الذي يمتد في البعيد ببيوته، بشوارعه، بجسوره القائمة فوق النهر، بأبراج أجراسه وبحدائقه. لكنْ سوف يكتفون فقط بالأعمدة، باللافتات، بالحدود، بالأسهم، أيّ شيء سوف يكون جيداً شرط أن يستطيعوا السير على هَدْيِه، هم الذين لا يرون شيئاً.

بعض الكلمات الشارحة فقط، كلمات شديدة الضعف، غير مناسبة، كلمات دون جاذب، جافة تماماً ورمادية، أدوات سوقية، لكنها أحياناً تستطيع، وقد استعملها أناس متواضعون ومرهفون، محسِنون، يشعرون بأنفسهم قريبين جداً من المتّضعين ويحبون توزيع جزيئات ثرواتهم على مَنْ هم أكثر فقراً، إنها تستطيع أحياناً، تلك الكلمات، بتبسيطها كثيراً لفكرة ما، بإفقارها بشكل هائل، تستطيع الوصول إلى إعطاء فكرة بعينها... الأشياء الأكثر معرفةً وعِلماً، الأكثر تعقيداً، بفضل قليل من العَزْم، يمكنها هكذا، أحياناً، أن تكون مشروحة... وبالنسبة لهم، فقط إنْ كانوا يريدون حقاً... من الممكن أن يستطيعوا... يجب فقط محاولة، فتح هذا الكتاب، ثمار الذهب، هنا، على أيّ مقطع، كيفما اتفق...

ليُشفَق عليهم، فهم شديدو الخوف والحذَر، لا يجرؤون على التجاسُر، لا يعرفون التحليق، طالما هم مستخدمون لنقطة ارتكاز واحدة، إن تكن متناهية في الصغَر وفي الهشاشة، بقوة، بطيبة... إنهم في أشدّ الحاجة لدعم صلب، فهم شديدو الخوف... يريدون أن يشعروا بشيء ثابت تحت أقدامهم... أن يسيروا مع الآخرين، الملتزمين في الاتجاه الصحيح... طالما أحبّوا الانقياد كثيراً، والاطمئنان إلى أن فكرهم المُقَيَّد دون مبادرة سوف يُقاد في دروب واضحة المعالِم... هم جِدّ شرفاء وممتلئون بالعزم، مرِنون، قابلون للتشكيل حسب الرغبة... لكنْ يلزمهم بالتأكيد قالب مبنيّ بشكل جيد حيث يمكنهم الانزلاق بمهارة. لا بُدّ من أن يجدوا شيئاً صلباً يستطيعون التعلّق به، الالتفاف حوله، وإلا فإنّ أعطافهم الضعيفة تتدلّى برخاوة شديدة، ستنكمش، ستجفّ، ستضمر... ستمتدّ... لتُعطَ... طرفاً صغيراً فقط، أيّ شيء، لتتسلّق... بالتأكيد،

ليس كامل الكنز الذي عرف الأقوياء كيف يجدونه، لا، مجرّد جزيء، لكنه قاس، صلب... لنتحلَّ بالشفقة... هم يصرخون... لتوضعْ نهاية لهذا التعذيب المتمثِّل في تطاوُل المرء هكذا بكلّ قوته من أجل محاولة الإمساك بشيء ما... فلا يجد أيّ شيء. ليكنْ عندنا شيء من الطيبة من أجلهم... مجرّد إيماءة واحدة كريمة... لنُبيّنْ لهم، لنشرحْ لهم، فالكتاب متوافر...

ربما إذاً، لكنهم لا يكادون يتجرؤون على الاعتقاد بذلك، ربما إذاً تحدث المعجزة التي لم يكونوا يجرؤون على أن يأملوا حدوثها. قد ينظرون... ليس الأمر إذاً إلا ذاك... قد يشرعون في القهقهة، في القفز، في التمرّغ على الأرض من وقع الإثارة، مُترَعين بالقوى المستعادة، بالثقة في أنفسهم، بالفرح... كان هو ذلك إذاً... لكنّ ذلك، كانوا قد ميّزوه، أدركوه، هم أيضاً، ومن ثم أعادوا رميه، فهو عديم الوضوح، عديم الثبات، غاية في الضعف والرخاوة، كان ذلك يتفكّك حالما يحاولون شدّه، كان ذلك ينسحق في ضمّتهم القوية – فهم غاية في القوة. هم شديدو الدلال، ليسوا فقراء قط، لا ليس هم، ثمة خطأ، ثمة التباس، فالآخرون هم المتّضعون، هم الضِحال، المتعطشون، الذين يكتفون – آه، هم غير مدلَّلين- بذلك المرق بلا طعم والخاص بمَنْ لا أسنان لهم. قد يكونون في غاية الخجل من أجل هؤلاء البائسين، قد يشعرون بالانزعاج الشديد إلى درجة يتصرّفون فيها كما يفعل الراشدون حين يمدّ إليهم الأطفال أياديهم الصغيرة التي تحمل حصاة، غصيناً، قطعة ورق، قائلين: خذ، هذه برتقالة، هذا خبز، كُلْ، هذه سكّرة... فيطبقون شفاههم على بعضها، يقلِّبون عيونهم، يهزّون رؤوسهم ليبيّنوا تلذّذهم: «آه ما أطيبه إذاً. آه ما أجمله! ثمار الذهب. نعم، لك الحق في ذلك. يا لروعته! يا لعمقه!».

لكنّ هذا قد مضى، امَّحى – انتفاضة قصيرة، ما لبثت أن قُمِعَتْ. ما من شيء برز في الخارج، واستطاع السماح بكشف التآمر، حتى وإنْ كان خجولاً ومكتوماً، مع تلك المجنونة، مع ذلك الرأس الحامي.

لكنْ هؤلاء، الآن، ماذا سيفعلون؟ ثمة نظرات قلقة تلتفت نحوهم. ماذا سيفعل هذان الاثنان هناك، اللذان ينتحيان جانباً ويصمتان، جالسَيْن الواحد قبالة الآخر، وعلى وجهيهما المظهر نفسه من الملل والاشمئزاز؟ أحدهما النحيل، ذو العظام البارزة، الغريب، المنكمش، يشبه شجرة متيبّسة تسبّب ريح أعالي البحار جفافها وانحناءها. تلتفّ ساقاه الواحدة حول الأخرى، وتبرز ركبتاه. كل واحد يعرف – وهو نفسه يعرف ذلك بالتأكيد أيضاً، كيف له ألا يعرف ذلك؟ - أنّ الفكر هو الذي يصفر كالإعصار من خلاله، هو الذي سبّب انحناءه وعَقَدَه هكذا، ونفخ مفاصل أصابعه الطويلة القاسية، ومرفقيه، وشفط جِلد صدغيه، وجِلد خديه، فجعل وجنتيه بارزتين بعَظْمهما، كذلك برزت تفاحة آدم عنده. يشعل الفكر في عينيه بصيصاً محموماً من النور المنبعث. هو لا يلقي نظرة على الرعناء المسكينة. كأنه لم يسمع نداءها. إنه على الآخر، المواجِه له، يركّز عينيه من فوق رؤوسهم جميعهم. الآخر، ضخم وثقيل، ناعم تماماً، متمدّد، كأنه ممتلئ حتى الانفجار بشيء نادر وثمين، بشيء يحمله بحذر ويحميه من كل التواصل الملوِّث، فيقدّمه، منفتحاً بحذر وبندم، على بعض المنتخَبين فقط، لكنّ ذلك يتسرّب رغماً عنه من ابتسامته ذات الطابع الإلهي الهندوسي، من جفنيه نصف المغلقين، اللذين ينفتحان الآن واسعَيْن بتأثير النظرة الحارقة. تتساءل عيونهم: وإذن، ماذا نفعل؟ لن نستطيع تمرير ذلك، هل أنت من رأيي؟ - بالطبع. يجب معاقبة مثل هذا الكمّ من عدم الاحترام، مثل هذا الكمّ من الغباء. – أنا، أرغب حتماً بفعل ذلك... – ممتاز. أدع لك فرصة الاستمتاع بذلك. هيا.

لا تكاد الشفتان المشدودتان دوماً بابتسامة مليئة بالغموض تتحرّكان: «أفكّر... وبالتأكيد، أنت أيضاً، أليس كذلك، على أيّ حال، يا عزيزي، سوف تكون من رأيي... بالنسبة لي، ما يجعله خارقاً – الكلمة ليست قوية كما يجب – ما يجعل جَمال هذا الكتاب خارقاً – ولهذا لا يمكن عزل أيّ مقطع فيه – هو أنه يشكّل تجربة، فريدة من نوعها على حدّ عِلمي.

الصوت أَغَنّ وزاحِف كما لو أنه كان يجرّه، بينما هو يقاوم، ممتلئاً بالاشمئزاز، من خلال فتحة ضيقة... هذا الكتاب، أعتقد، يعزّز في الأدب لغةً مميّزة تتوصّل إلى الإحاطة بعلاقة تناظر هي بنيته عينها. إنه تناسب جديد جداً وكامل للإشارات الإيقاعية التي تُصاعِد عبر ضغطها ما هو موجود في أيّ معنى غير أساسي. إنها الصفة غير الأساسية التي وصفتَها جيداً، يا صديقي العزيز». حدث للآخر، قبالته، تشنّج مقتَضَب، وأضحى كأنّ ريحاً فجائية ومقتضبة قد اجتاحتْه، فهدأ فوراً وحنى رأسه ببطء: «نعم. بدهيّ. ثمة هنا فعل الطيران الذي يلغي غير المرئيّ بتأسيسه في التباس المدلول».

- نحن متوافقان تماماً. هكذا يوجد هنا بُعدٌ غير زمنيّ متلاشٍ في متغيّرات مجموعة «التيهات». من هنا، هذا العمل هو قصيدة حتى في طبقاته الأكثر بنيويةً.

- أكثر من ذلك: سوف أقول إنه بإدراك غير المعبَّر عنه فكرياً في الوقت نفسه بطرق مختلفة استطاع هذا العمل التملّص من تحجّر المنظَّم. من هنا، سينتشر - وبأيّ شكل! – و، حرفياً، يشعرنا بالملء.

هؤلاء الذين كان الأمل في الاستقرار في البلاد المُفرِحة، التي لمحوها، قد ساورهم في لحظة قصيرة، استمرّوا في مسيرتهم، قطيعَ أسرى كالح الحزن

يجرّ سلاسله، مطروداً باتجاه أيّ مساحات شاسعة من المستنقعات، أيّ أماكن فسيحة بلا نهاية من الأراضي القطبية الجليدية.

لكنْ ليس أنا، ولا أنا، ولا أنا، ولا أنا، نشيطاً، لاعباً كالأطفال، أهرب، أنا، أتعلّق هنا، أتمسّك بأي شيء، لا أتركه، يحملني غصين، فأنا جِدّ خفيف، كلّي رغوة، ألتهبُ نشاطاً وألتمع، كالشمبانيا، كالزئبق... أظلّ معلّقاً في الهواء، أمسك بأيّ شيء... بِـ «لغة مميّزة»، «جديدة جداً»، بِـ «إشارات كاملة إيقاعية»، بـ «ضغوط»، بِ «فعل الطيران»، بِـ «بُعد لا زمني»، بِـ «قصيدة»... بكلمات قافزة، بكلمات، وبأخفّ من الشعيرات، أتعلّق بها، بكلمات غير ملموسة وشفّافة، بإيقاعات، بطيران، بفعل الطيران، هذا يرفعني، أطير، أطير أعلى، أعلو من خلال بحار من الغيوم، دوماً أعلى، نحو سموات نقيّة، زرقاء صافية، بياض صافٍ، شموس، تطويب الغبطة، نشوة... «كم هو صحيح، هذا الذي تقوله، كم أنك تبيّنه جيداً. هو عمل شاعريّ حقاً. آه لك الحق في ذلك، نحن نشعر بالملء».

لو كان بإمكانه الإمساك بهم من أكتافهم وهزّهم، هؤلاء المنتشين ذوي الوجوه المغبوطة، هؤلاء المُنوَّمين مغناطيسياً... استيقظوا، لقد أغرقتكم الإيحاءات المغناطيسية في النوم، جرى التأثير عليكم، عودوا إلى وعيكم، انظروا، انظروا إليهما، إلى هذين المتآمرين اللذين مارسا عليكم للتوّ واحدة من ألاعيبها. لاحظوهما بانتباه: ثمة شيء ما هناك، فيهما، يكفي رؤيته مرّةً واحدة حتى يصبح واضحاً لكم دوماً. لكنْ كيف يمكن التصديق بأنكم أنتم بأنفسكم، أنتم الشاردون تماماً كما هي حالكم، لم تلاحظوا ذلك في لحظةٍ ما؟ كل الناس يرون هذه الأشياء. لكنكم فضّلتم تخطِئة أنفسكم، فهذا أقلّ إقلاقاً، إنها أشياء يُفضَّل انزلاق النظر إليها سريعاً، ويُحبَّذ التغاضي عنها، سرعان

ما تُنسى، لم يرَ أحد شيئاً... لا يمكن أبداً تصديق الأمور بسهولة، ويُفاجأ المرء تماماً حين يُلِحّ أحدهم – لكنْ كم هو غليظ، وغير متحفّظ - ويريد بأيّ ثمن إظهار تلك الأشياء لكم... لكنْ يحدث التمرّد... لكنك ما الذي لا تزال تبحث عنه؟ أنت ترى الشرّ في كلّ مكان. طالما أراد المرء، أليس كذلك؟ الحفاظ على هدوئه، الالتصاق، ككلّ الناس، وهم متراصّون بعضهم إلى جانب بعضهم الآخر في سكينة البراءة الطيبة، والمهدِّئة، سكينة الجهل... لكنْ يجب فعل ذلك، أتسمعني؟ هذه الأشياء – يجب أن تصدّقني في ذلك – هي من الأمور الأكثر أهميةً. تحلَّ بالشجاعة قليلاً إذاً، اقترب قليلاً أكثر إذاً، سوف ترى... يكفي التقاط الدلالة الأكثر وَهْناً وعدم تركها... لن تستطيع أن تتخيّل إلى أين، إلى أيّ كنوز مُخَبَّأة يجري اقتياد المرء حين يتجرّأ على أن يغامر هكذا، ممسكاً في يده بالدليل.

أنا، على هذا استوليتُ في البدء، هذا ما أرشدني: ذلك المظهر الذي هم عليه في رغبتهم بالانتحاء جانباً، في البقاء على العرش في مكان ما على القمم، فوق السُّحُب حيث، من وقت إلى آخر، بفضل صعقات البرق القصيرة، يمكن لحظهم، وهم يتبادلون في ما بينهم، كما حدث منذ قليل، من قمة إلى أخرى، إشارات لا تكاد تُدرَك، قبل أن يُفلِتوا تلك الكلمات لتنهال علينا، التي يجب أن أعترف بأني كنتُ أميل إليها في البدء، أنا أيضاً، متمطِّطاً بكلّ ما أوتيتُ من قدرة من أجل الوصول إليها، وأنا أيضاً، كنت أحاول التسلّق إليها... لكني أنا ثقيل، أنا صلب، أنا لست زغباً تطيّره هبّة الهواء الأكثر خفّةً، كنت أقع أرضاً من جديد في كلّ مرّة، وأجرح نفسي، وأظلّ طويلاً واهن القوى، متقلّصاً، دون قوة لأنهض من جديد.

ومن ثمّ، في يوم من الأيام، رأيتُ ذلك يبرز، هذا الشيء الصغير الذي، يبدو لي بأن الآخرين لم يكونوا يرونه أو أنهم يتظاهرون بعدم رؤيته. لقد تبعتُ أثر ما كان يخرج من هذه النظرات المتبادلة، من كلّ هذه الوضعية في الانتحاء المتعالي، من هذا المظهر المتحجّر قليلاً. تبعتُه حتى مصدره، حتى ذاك المكان السرّي الذي شهد قديماً، منذ فترة طويلة، ولادة ذلك، وهناك، رأيتُ الحركات الأولى تماماً تتكامل تحت ناظرَيْ، تلك الحركات التي كان عليهم تنفيذها منذ وقت طويل جداً، حين تمترسوا عند ذواتهم، وسدّوا كلّ المنافذ، حتى الشقّ الأكثر نحولاً، من أجل منع التغلغل في ذواتهم، منع الانزلاق إلى دواخلهم، بشكل مؤلم، ما كان يتسرّب من كلّ نظرة موجّهة إليهم مباشرةً، من كلّ نبرة صوت، من كلّ محاولةٍ للشروع في الابتسام، كي لا تستطيع الانعكاس من خلالهم الصورة الصغيرة الغامضة التي حاول رسمها بإهمال أناس مهمَلون مساكين، أناس غامضون، كتّاب غير معروفين ذوو كتابات غير مقروءة ومرفوضة في كلّ مكان. لقد أقفلوا على أنفسهم بأقفال ثلاثية. وحدهم مع صورة أخرى لم يعودوا يتوقّفون عن تأمّلها، صورة لهم أنفسهم بقياسات ضخمة، دوماً أعظم، تنتشر من كلّ الجوانب.

إليها وحدها كانوا يتوجّهون بالحديث، معها وحدها، عبر لغة مصنوعة لها وحدها كانوا يتواصلون، فهي، قارئتهم الوحيدة وقاضيهم الوحيد. كانت موافقتها هي فقط تكفيهم.

ومن ثمّ رأيتُ الآخرين، ثابتين في أمكانهم في الخارج، وقد بدأ الانزعاج يسيطر عليهم شيئاً فشيئاً. ألمٌ غريب ظهر عليهم. كانوا يشعرون بأنهم منبوذون، معزولون، لم يكونوا يعرفون تماماً من أيّ شيء، لكنّ الإحساس كان هناك: جرى إقصاؤهم. هل كانوا إذاً محتقرين إلى هذا الحدّ؟ هل كانوا إذاً جاهلين إلى

هذا الحدّ؟ بعض الروّاد الجسورين، بعض الباحثين المدمنين، من أولئك المستعدّين لمواجهة الموت من أجل اكتشاف الكنوز المخبّأة في قبور الفراعنة، من أولئك، ذوي الصبر اللانهائي، الذين يكرّسون حياتهم لانتزاع السرّ من الخطوط الهيروغليفية، هؤلاء أصاخوا سمعهم إلى الشائعات... إلى نصوص كانت قد نُشِرَت، كتيّبات مفقودة، مقالات ضمن مجلات، لم ينتبه إليها أحد... لقد عثروا عليها من جديد، أخرجوها من مدفنها، خلّصوها من الطبقة السميكة من اللامبالاة المزدرية التي كانت تغطيها، فاستشرسوا في دراستها، في تقليبها وفي إعادة تقليبها ورأوا في النهاية، فهموا في النهاية... كان لهذه الإشارات معنى، هنا تكشّفت لهم لغة مجهولة. كانت لغة جديدة، رائعة في الاقتضاب، في التشدُّد، في الحرّية، قد خُلِقَت، فهمها فقط بعض المميّزين النادرين.

ممتلئين بالخشية، إذاً، تجرؤوا على التقدّم، اقتربوا من الأبواب المحروسة جيداً، من البوابات الحديدية العالية للبيت المَلَكيّ الذي كان يعيش فيه سجناء، أمراء الفكر هؤلاء. لقد لفظوا بخجل بعض الكلمات، فانفرجت البوابات الحديدية كي تسمح لهم بالمرور. تجاوزوا مساحات مَهيبة، الباحات الواسعة للقصور المَلَكيّة المغطّاة بالحصى الصغير البيضاء. دخلوا ورأوا. ماذا رأوا يا تُرى؟ كذلك كان سؤال الجمع المحتشد حين خروجهم، وهو جمع المُقصَين الذي لا يزال دوماً يتكاثف وينفد صبره. آه جرى إخافتهم إلى الحدّ الأقصى – كانوا يحكون ذلك – كان يشعر المرء بوجود حرّاس غير مرئيين مزروعين في كلّ مكان ويلاحظون هيئتك، هندامك. كان يجب الانحناء تنفيذاً لقواعد صارمة، الانحناء إلى انخفاض تام، حتى الأرض، لكنّ ذلك لن يشكّل عائقاً، فسجدوا... أعماله الفنّيّة... همسوا بذلك، ممتلئين فخراً وفرحاً إلى حدّ الجنون... كانوا الأوائل، من دون تشجيع، من دون دعم، في اكتشافها، في تأمّلها...

لدينا...، أيها المعلّم، نعتقد أنه في استطاعتنا تأكيد ذلك لك، لقد فهمنا، لقد أُعجِبنا... دعوتنا هي دون حدود، نستطيع تأكيد ذلك لك، من دون تحفّظات... إذاً رأينا السيد يتقدّم نحونا ويُنهِضنا... آه لم نكن لنتعرّف إليه قط... هو غاية في البساطة، جذّاب. قادَنا إلى غرفة كانت تتكدّس فيها مخطوطات لا تُحصى...

- متى يمكن لنا رؤيتها، نحن أيضاً؟ متى من الممكن استعراض الكنوز؟ يضرب الجمع النافد الصبر بأقدامه على الأرض... – سوف يأتي أوان ذلك، اصبروا... لقد وافق... – هل هذا ممكن؟ - نعم، أراد عن طيب خاطر أن يُسِرَّ لنا بذلك. ولو كنتم تعرفون مدى الفضل الرائع، مدى العفوية العذبة المتضمَّنة في كلماته... – كيف، أتكلّم معكم حقاً؟ - تكلّم؟ معنا؟ لكنه كان يثرثر، لم يكن يستطيع التوقف مطلقاً. كان يحدّثنا بحرّية وثقة... ونحن، بدورنا، بتأثير هذا التدفّق المنعش... كل ما يقوله شديد العفوية، الحداثة، الدهشة... نحن كنّا نتسلّى، حتى إننا كنا نفقد، للحظات، هاه؟ كل التحفّظ... – كنتم تتكلّمون عَمَّ؟ - آه عن أيّ شيء وعن لا شيء. كنا نتكلّم بتنويع متواصل للموضوعات. – لكنْ عمَّ إذاً، بحق السماء؟ - عن أي شيء، عن الأشياء الأكثر بساطة، عن كل شيء... – عن كل شيء؟ لكنْ إذاً، ربما... لا... من المستحيل تصديق ذلك... هل تكلّمتم عنّا نحن أيضاً... لكنْ هيا قولوا عمَّ تكلّمتم... عمّن؟ عني، ربما، يا لَلفرح، ربما يكون كتابي... لكنْ كيف؟ بأي معجزة؟... تغلغل حتى هناك... – حسناً، تصوّر أنه على علم بذلك تماماً. إنه يهتمّ بكل شيء. هذا مستغرب جداً. كان يعرف كتبك... – آه أنا أتهاوى... لكنْ لا تعذّبوني أكثر... بسرعة... ماذا قال؟ آه! ذلك؟...

لكنْ كم هذا غريب... محيِّر... تماماً على العكس مما... لكنْ مَنْ نحن، هنا، حتى نحكم على ذلك؟ يجب تلقّي ذلك بحذر، يجب فحصه بتواضع شديد... يجب أن نفهم أولاً أسرار هذه اللغة المجهولة... لكننا مستعدّون لبذل كل المجهود... نريد أن نكون، نحن أيضاً، في يوم ما، جديرين برؤية البوابات العالية المصفّحة بالحديد تنفرج لأجلنا، بالتنزه مرتجفين في الباحات الواسعة ذات الحصى الصغيرة البيضاء، بعبور القاعات المتتابعة الواسعة والدخول... جثوٌّ، تقبيلٌ للأيادي... ولكنْ هيا انهضوا، ارتفعوا، هناك، تعالوا إذاً لتجلسوا هنا، بالقرب مني...

هكذا بدأ كل شيء. هكذا حدث كل شيء، أنا متأكّد من ذلك.

لكنْ حتى الآن، وقد تأكّد النصر، لن تُمحى أبداً منهم ذكرى جرائم تحقير جلالته، لن يستطيعوا نسيان ضحكات الرعاع، خِسّة الألفة عند الأدنياء، الازدراء، عجرفة الناس في المكان. يبقون متنبّهين، متمترسين عند ذواتهم، محروسين من كلّ حدب وصوب. بينهم وبين المجموعات التي تصبح دوماً أكثر عدداً من الذين ينتظرون خلف قضبان البوابات، متأمّلين أخيراً رؤيتهم واضحين، نازلين ربما في يوم من الأيام، خارجين، و – يا لَلعرفان، يا لَلسعادة – آتين للاختلاط بالجمع لبضع لحظات، يمدّون، كما الباحات المهيبة البيضاء أمام قصور الملوك، المساحات الزمنية الواسعة من صمتهم، التي لا يمكن تجاوزها. لا يرضخون أبداً، لا يقدّمون أقلّ تنازل. حتى إنه يبدو أنه منذ تزايد عدد العارفين المبتدئين دون توقّف، أخذوا يبتعدون أكثر، فيجعلون من أنفسهم دوماً، وأكثر فأكثر، أشخاصاً لا يمكن الوصول إليهم، وأكثر اختباءً. تتصاعد دوماً إلى الأعلى لهجتهم الموجّهة

إليهم فقط أكثر من أيّ يوم مضى نحو هذه الصورة التي خطّوها لأنفسهم فيما مضى، بلا حدود، جالسين على عرشهم الذي أضحى أكثر بُعداً فوق السحاب. لكنْ يمكن للكلمات التي يوجّهونها له أن تضيع الآن في أعماق السماء. لا يزال يصعد، وراءها دوماً بجسارة، الباحثون المواظبون بعناد، وبأعداد تتزايد دوماً، يصعد المريدون المنتشون، مُمتلئين بالإيمان.

لكنْ، أنا أقاوم. أنا، بقدَمَيَّ الثابتتين في الأرض، برأسي الصلب فوق الكتفيْن، لا أشارك في هذا التسامي الغريب. اكتشافي، هذا الطلسم الثمين الذي أظهرته لكم للتوّ، يحميني. خذوه، أنا أمدّ يدي به إليكم، هو لكم أيضاً، يا رفاقي، أمسكوا به جيداً، لا تُفلِتوه من أيديكم وستصبحون مثلي، أقوياء، ذوي بصيرة. أعيدوا شحذ فكركم، لننظر معاً، لنتفحّصْ بشكل أقرب وأدقّ ما وقع هناك للتوّ، أمامنا، شبيهاً بشهاب منسلخ عن النجوم البعيدة. لنفحصْ قليلاً ماهيّته. صدّقوني، لا حاجة بنا لبذل مجهود كبير. قيِّموا ذلك بهدوء، تلك الكلمات الثمينة، شديدة النُدرة، أؤكّد لكم، أنها لا تحتوي على أيّ حِمْلٍ من الأفكار الكثيفة والدقيقة. إنها كلمات مسكينة خاوية، مُجمَّعة بسوقيّة تبعاً لطرائق، قد تستطيعون من خلالها، إن كنتم تريدون ذلك، الاكتشاف وإعادة الإنتاج بسهولة لحيل الشعوذة شديدة البساطة من الحَواية، لألعاب الشعوذة التافهة تماماً. مُرّوا سريعاً، دون أن تضيعوا وقتكم الثمين من دون فائدة، على هذه المقالات الغامضة التي يجري الحديث عنها كثيراً، تصفّحوا، كما فعلتُ أنا، هذه الكتب وسوف تجدون: لي الحق في ما قلتُه. لنشعلْ أتون نار عظيمة من كلّ ذلك، لنضع أيادينا في أيادي بعضنا بعضاً، لنرقصْ. هيا، يا رفاقي، يا إخوتي الخجِلين، شديدي الهشاشة، شديدي التواضع، لا تستسلموا للتأثير، تشجّعوا، ساعدوني...

يتمنى لو أنّ أحدهم يسمع نداءه، لو أنّ واحداً منهم فقط يرغب في المجيء ليقف إلى جانبه عن طيب خاطر... لو أنّ نظرة أخرى غير نظرته تتبيّن ما يراه هو... هو لا يطلب منهم أكثر من ذلك. كي يستطيع أن يشعر بالأمان تماماً، بكونه لا يُهزَم، كي تستطيع الحقيقة أن تنتصر، يلزمه ذلك فقط: شاهد واحد فقط. تلتفت عيناه في كلّ اتجاه، فتنزلق على الوجوه المنتشية، على السحنات التي حجّرها نوع من غباء الشرود.

لكنْ هناك، قبالته تقريباً، لم يكن قد لاحظها، تقف متواريةً جداً، دوماً عن بُعدٍ، قليلاً، هي أيضاً، ولكنْ دون أن يطفو عندها أيّ شيء من الخداع، ولا أيّ من هذه الحركات المكتومة التي، عادةً ما تجذب انتباهكم بالتنبيه فتجعلكم تنطلقون، بتأثير اندفاعة لا يمكن مقاومتها، نحو اكتشاف النقطة السرّية التي جرى الانطلاق منها. تطول مدّة النظرة الهادئة المتركِّزة عليه لعينين ملوّنتين بلون جِدّ فاتح، تضغط، وابتسامة لا تكاد تُرى تجعل لحم الوجنات الطريّ قليلاً يكبر بشكل خفيف. لا يوجد أدنى شكّ: لقد رأتْ، هي أيضاً، اكتشفتْ المكان السرّي، هي تملك طلسم التعويذة، استطاعت إيجاده دون جهد، فقد انساقتْ إليه مباشرةً، اقتيدَتْ إليه عبر غريزة غامضة وواثقة، مشابهة لغريزة العصافير، والحمام الزاجل. لم تستسلم للتنويم المغناطيسي، لقد قاومتْ ذلك. اطمأنّ لنظرتها: كما ترى، أنتَ لستَ وحدك. نحن نتفاهم. لسنا وحدنا، صدّقني. ثمة آخرون، لا نعرفهم، هم منعزلون، لا يتواصل أبداً بعضهم مع بعضهم الآخر، ثمة آخرون، يزدادون عدداً كلّ يوم، يدركون الحقيقة مثلنا. يوماً ما، من المؤكّد، سوف تنتصر. لماذا تتحرّك هكذا جيئةً وذهاباً؟ لماذا الاضطراب؟ ما الهدف من الاستعجال إذاً إلى هذا الحدّ؟ يجب على المرء أن يعرف كيف يبقى لامبالياً، كيف

يترك الأمور تنزلق وحدها، تمرّ... ما أهمية كلّ ذلك؟ يكفي الانتظار. كنْ مثلي، تَسَلَّ قليلاً، اعترفْ بكون العرض مُلهياً...

«أعتقد أنك مثلي، أنتَ، لستَ من أولئك الذين جُنّوا بذلك، بِـ ثمار الذهب، أليس كذلك؟»

بما أنهم الآن قد استطاعوا الانضمام إلى بعضهم بعضاً، بما أنهم يستطيعون التحدّث معاً قليلاً بعيداً عن الآخرين، هي تقول له ذلك، منتصبةً إلى جانبه، رافعةً رأسها نحوه، متفحِّصةً إيّاه بنظرتها الصبور. روحها المحفوظة بشكل غامض... لا يستطيع أيّ هجوم وحشيّ آتٍ من الخارج إخضاعها، ولا يستطيع أيٌّ من هذه المنتجات المصنوعة بكثرة إزعاجها مطلقاً... روحها النقيّة، القويّة، تُعرَضُ، هناك أمامه، ببراءة كاملة، بثقة مؤثِّرة في عينيها الكبيرتين الشفّافتين، في وجنتيها العريضتين، بابتسامتها المميّزة بسذاجة الأطفال... فإنّ لهم ملكوت السموات... فيهم، تنمو وتزهر بإعجاز أحاسيس بريئة، جديدة، قادرة... ينثني نحوها، يبتسم لها، ينظر مباشرةً في عينيها... هو مستعدّ ليهجر كلّ شيء، ليتخلّى عن كلّ الثروات التي راكمها، عن ذكائه، عن علمه عديم النفع، عن أيّ تفكير دقيق وادّعاءات له، كي يكون مثلها، محميّاً من أيّ تواصل يسبّب القذارة، كي يستطيع مثلها تحديج الشرّ بنظرة لا يمكن لشيء مطلقاً تغيير سكينتها، كي يكون شبيهاً بها، مكوَّناً من المادة نفسها، بسيطاً، متواضعاً، وقوياً بثقة لا تتزعزع في النصر النهائي للخير، في فوز الحقيقة... يشعر بابتسامة طفلٍ على شفتيه، يبدو له أنّ شعاعاً صافياً ينطلق من عينيه... «لو كنت تعرفين المتعة التي تسبّبتِ لي بها وأنت تقولين هذا... لا يزال كلّ الناس منبهرين بكل هذه الجُمَل الجوفاء، بكلّ هذه الخطَب العظيمة... هذا

أمر معرفيّ صعب جداً... ولأيّ شيء يُقال، أنا أسألك... إنه حقاً لَمِنَ النادر أن يوجد شخص ما...»

- «آه، أنا، كما تعرف، لا أعرف شيئاً عن ذلك... مَنْ أكون، أنا، حتى أحكم على الأمر؟» يلوّن الاحمرار وجنتيها، المنتفختين قليلاً... تنهدل خصل شعرها الرمادي والمقصوص بشكل سيّئ على رقبتها... وأمامها، هي تُبقي على يديها المتشنجتين بأصابع قصيرة، بأظافر مقصوصة إلى آخر حدّ... تتهادى ثيابها التي لا تلفت النظر، على جسدها الذي لا شكل له... هي عجوز وحيدة لا يعرف غير الله كيف تعيش، وبماذا تهتم! أترسم؟ بأيّ غواش؟ أيّ منمنمات؟ وأيّ قصائد تكتبها، لها وحدها؟... أوقف في داخله حركة التراجع الخفيفة جداً، سحق الانطباع الذي لا يكاد يُدرَك للشعور المتدهوِر بالاختلاط... «لا، لا، أنتِ تعرفين أفضل منهم جميعاً، أنتِ تحكمين بأفضلَ من كلّ أصحاب الفكر القويّ أولئك الذين لا يفهمون شيئاً من تلك التفاهة...»

هو معها، قد خلع لباس النبلاء، تخلّى عن صداقة القادرين، هجر مكان إقامته الفخم المُزَيَّن بالرخام، بالتماثيل، برسوم الفريسك، بالفسيفساء الراقي، يتبعها في القبور تحت الأرض، هي، شقيقته... هما محوطان بوثنيين، مطاردان، سيستشهدان، سيُهانان، لكنه اختار أن يقف إلى جانبها، يريد الالتحاق بالفقراء، بالمتواضعين، بالبسطاء، بأولئك الذين يعرفون مكان وجود القيم الحقيقية... «أترين، لا يمكن لهذا أن يحدث بالمطلق تقريباً، لأن يجد المرء واحداً يجرؤ على أن يكون له ذوقه الخاص ويقوله مثلكِ... واحداً يتعاطى مع عمل

فني بنقاء تام، دون فكرة مسبقة... أعتقد أن لا أحد هنا... فأنتِ سمعتِهم... مهتماً بالعمل الفني بحدّ ذاته... ما الفائدة إذاً، من النقاش معهم... ليس ثمة من كلمة صادقة... أمَّا معكِ، شعرتُ فعلاً منذ قليل...»

هي تستمع إليه، بعينيها الشفافتين المثبّتين عليه، بفمها المنفرج قليلاً... بوجه من النشوة، من التعصّب... برأس قليل الازدحام ربما تأتي أيّ معتقدات عبثيّة، لتتربّع فيه، محتلّةً كلّ المكان... جماعة العلم المسيحي[1]... العلوم الباطِنة... ممارِس اليوغا... مُريد مذاهب عقائدية غريبة... هائماً بعيداً عن الدروب المخطّطة... مذهب التعرّي في الهواء الطلق... الساندال الإغريقي البسيط... الطاولات الدوّارة... عنده رغبة في الابتعاد، لكنْ، بتأثير الأشعّة الساخنة التي تنطلق دوماً من العينين الكبيرتين الواثقتين، الكلمات، داخله، كالبخار، الذي ينطلق من الغدران النحيلة التي يتركها انسحاب أمواج مدّ الخشوع، النقاء، الأخوّة التي أغرقتْه، تتصاعد، وتحتويها... «لا، هذا صحيح، ما أقوله. أنتِ مختلفة... لحسن الحظ... لا يُرى ذلك غالباً، أنا أؤكّد لك ذلك... لكنك تعرفين هذا جيداً... أشعر تماماً مثلك: ثمار الذهب، هذا الكتاب...»

---

(١) جماعة العلم المسيحي (Christian Science) واسمها الرسمي كنيسة المسيح العالِم Church of Christ, Scientist، وهي كغيرها من الكنائس المسيحية تؤمن بعلم الله المطلق وبسلطة الكتاب المقدّس، وتعدّ صلب وموت المسيح أساساً لخلاص البشرية. ولكنها تختلف عن المسيحية التقليدية بإيمانها بأن المسيح هو كائن سماوي روحي ولكنه غير إلهي، وأيضاً ترى الخليقة وجوداً روحياً كليّاً. وتقول إن الخطيئة تنفي وتقاوم سيادة الله على العالم وتشوّه حقيقة أن الله هو مصدر الحياة، لذلك فإن علاج الأمراض بطريقة روحية يمثّل عنصراً أساسياً للخلاص. استناداً إلى هذا، يرفض معظم أتباع هذه الكنيسة المساعدة الطبية في الشفاء من الأمراض. (م).

«ها، ها، أيضاً... أما زلتما تتناقشان في ثمار الذهب؟» جنباً إلى جنب، الاثنان العظيمان، الاثنان النبيلان المتساويان، المنعزلان وسط الحشد، مرّ، لامسهما، نظر إليهما نظرة تنمّ عن الشرّ. لقد رأوا الروحين الصافيتين، الاثنين البريئين. جمعوا بينه، هو، وبين هذه المتخلِّفة عقلياً. إنّ الطيور على أشكالها تقع... لقد رأوه، ساذجاً، حسّاساً مثلها، مليئاً بِـ «المَثَل الأعلى»... وافق شنٌّ طبقة... هم يعلمون... نظراتهما الموارِبة، ابتسامتهما بيّنت ذلك... لقد قرؤوا في كتاب مفتوح داخلها، داخله، رأوا رضاهما لكليهما، تبيّنوا تواطؤهما، أدركوا – وهم دوماً لا يزالون يقظين بحذر – معنى النظرات المتبادَلة، ابتسامات الازدراء... أمر في غاية التسلية... أناس مساكين... ضعفاء ولهم أدمغة قليلة الصلابة، مبنيّة بشكل سيّئ، غير قادرين على الإدراك، على تحليل الأشياء الرهيفة بدقّة. المرء كسول قليلاً، دون شك، أيضاً. يترك نفسه لينزلق نحو ما هو سهل، مشكوك فيه قليلاً، علم النفس، التحليل النفسي رخيص الثمن، النميمة... حتماً يجب إيجاد وسيلة للبروز، أليس كذلك... لكنهم مضحكون... هم مؤثِّرون... متعلّقون بالأحاسيس «الصادقة»، «العفوية»... هذه الكلمات التي يستعملونها مدعاة للسخرية... خائفين من كلّ ما هو منظَّم البناء، بسيط، أجرد، «دماغي» (واحدة من كلماتهم المفضّلة)، غير واثقين إلا بغريزتهم، التي تجعلهم، مثل الجراء التي تستلقي على ظهرها وتشتكي لمجرّد سماعها الضجيج الناعم، الصادر عن الصوت، يقومون فوراً بردّة فعل أمام ما هو «حقيقي»، أمام ما هو «جميل»، «حيّ»، كما يقولون... كما لو أنّ كلّ شيء في الفن لم يحضّر بشكل ارتجالي، أثر التراكيب المعرفية، من الحسابات، من الاتفاقات، كما لو أنّ اللغة المناسبة

لإتمام الكلام عن الموضوع بأكبر فاعلية ودقّة ممكنة ليس عليها حتماً أن تكون لغةً غامضة لغير العارفين... لكنْ، بينهم جميعاً، هذه الكلمة التي تُبعِدهم وتطردهم تسبّب لهم الرعب والاشمئزاز...

لاحظوا كلّ شيء بطرفة عين، اخترقوه وثبّتوه هناك، قربها، لقد علّقوا عليهما، عليها وعليه، اللافتة عينها... رأوا كلّ شيء دون التوقّف عن الحديث، هم ألقوا إليهما فقط هذه الكلمات وهم يبتسمون، وبنبرة ساخرة بلطف، كما لو أنهم يتحدّثون إلى طفلين: «أما زلتما تتناقشان في ثمار الذهب؟» ومرّوا.

* * *

«قِطَع صغيرة من الخشب في الأذنين، هوه، هوه، هوه... يا سيدتي الغالية، هذا هو جزء من الأدب العظيم... قطع صغيرة من الخشب في الأذنين... آه أيها العزيز والعظيم جارّي[1]...

كيف نستطيع العيش، ماذا قد يحلّ بنا من دونك؟... كان يجب الاستماع إليها، إلى تلك المرأة الشجاعة، كانت في غاية الاحمرار، كلّ شعيراتها منتصبة كالشوك: «لكنْ يا سيدي، أنا أجد كتاب ثمار الذهب مصطنعاً... إنه أدبيّ بشكل مبالَغ فيه... الواقع، ليس هكذا...» قطع صغيرة من الخشب في الأذنين... هذا هو الأدب، يا سيدتي اللطيفة، هذا هو، الواقع، كما تسمّينه... خافت كما لو أني

---

(١) في مسرحية «أوبو ملكاً» (١٨٩٦) للمسرحيّ والروائي الفرنسي ألفريد جارّي (١٨٧٣– ١٩٠٧)، يستعدّ الأب «أوبو» لقتل القيصر باستخدام هذه الطريقة، وطرق أخرى غريبة. الطريف في الأمر، أن جارّي شوّه كلمة «الأذنين» كما شوّه كلمات أخرى، بطريقة سوقية، في النص المسرحي العبثي لاستفزاز المشاهد. عُرِضَت المسرحية ليوم واحد فقط ثم مُنِعَ عرضها مباشرةً بعد اليوم الأول. (م).

انهلتُ عليها، اعتقدتُ أنها كانت ستطلب النجدة... كان يجب رؤيتها، هذا مضحك جداً: «لكنّه جِدّ مصطنع... المشاعر، إنها أكثر تعقيداً بكثير... هو يزقزق... لقد جرى تعليمنا... حالياً، نحن نعرف...» ماذا تعرفون إذن، هاه؟ ماذا علّموكم؟... كانت المسكينة شديدة الغضب:

«ما نسمّيه بالواقع اليوم – إنه شيء آخر تماماً... منذ نصف قرن، كل هذه الاكتشافات... لم نعدْ عند تلك اللحظة، تجاوزناها... هذا ما أشرحه دوماً...» آه سيدتي... يهزّ رأسه متّخذاً، كذباً، مظهر المفكّر الصارم... ما هو الواقع إذاً؟

بحركة ابتهال، جعل يديه العريضتين، المستخدمتين في سحق الألوان، في الاستعمال الماهر لِفُرَش الرسم، لأقلام الحِبر، تنتصبان في الهواء. يدور رأسه ذو السمات النبيلة، الموسومة بالجهود الأكثر مَشَقَّةً، بالمعارك الأكثر ضراوةً، حول عنق عارٍ، ينظر حوله بعين الباشق الثاقبة والقاسية: هيا، مَنْ يقول أفضل؟ قليل من الجسارة... مَنْ يريد إعطائي الجواب؟ ليأتِ... إذاً لا تخافوا... لكنْ من ذا الذي قد يرغب، لكن من ذا الذي قد يجرؤ، فيتحوّل فوراً إلى سيدة شجاعة غاضبة، بالذهاب أمام جمهور ليعرض نفسه بين يديه ممثّلاً على خشبة المسرح الشعبي؟

أضحى وجهه جادّاً جداً: ذاك اليوم قلتُ لِبريهييه: أتدري، إنّه جميل، كتابكَ. أنا مغرم بإستيل.

المشهد في ضوء القمر... الشلالات، الدروب الرومانسية المسوّرة بشجيرات الزينة، آه، هذا مشهور، هذا الذي ذكرته، يا صاحبي. يجب العودة

إلى هذا... بالنسبة لابنتك، سيدتي، سوف يكون الواقع، كما تسمّينه. سوف يجعلها بريهييه تشعر به بتلك الطريقة. كانت مختنقة بالذهول: لكنّها مشاعر لفتيات مدينية ذات أفكار ساذجة ورومانسية... كنتُ مسروراً! برافو! هذا هو ما يلزمنا في هذه اللحظة: مشاعر لفتيات مدينية ذات أفكار ساذجة ورومانسية... لا، لكنْ لندعِ المزاح جانباً، هذا مذهل. أتعرف كيف كان بريهييه يريد تسمية ثمار الذهب؟ مبالغات: لا بأس به. أنا كنتُ أرى ذلك جيداً جداً. ممتازاً. ومن ثم، وجد ثمار الذهب. لقد جذبتْه مسألة الإيهام. قال لي: «كنتُ أريد أن يتضوّر القارئ جوعاً أمام هذا». مثل المرأة الشجاعة... «على هؤلاء، المتعطّشين، الذين يريدون قضم التفاح النديّ، أن يكسروا أسنانهم فيه». لكنْ بالنسبة للآخرين، يا له من غرض ثمين! أليس كذلك؟ ثمار الذهب النقيّ. ويا له من إطار منحنٍ. المشهد في ظلال شجيرات الزينة... يا له من فن... إنّ بريهييه، في العمق، بهلوان، صحيح؟ هاه، ألا توافق؟ بلى؟ هل قرأت مقالة مونود[1]؟ رائعة. لقد صفعهم بهذا... لا يساوي شيئاً. أوه إنه «عظيم»، كما كان يقول الآخر. لا يساوي شيئاً. إنه كتاب لا يساوي شيئاً. يبدأ هكذا. يغتبط كل المتعطّشين، كل المكبوتين. لا يساوي شيئاً. محذوف. كل شيء يُحذَف. لا يبقى شيء. يبقى الأسلوب متمنِّعاً عن بُعد. انتباه. ممنوع اللمس. انظر. لا تستهلكه. فرح العيون. ما مِن «واقع». إنه التهذيب الكامل. ما مِن حميمية مطلقاً، ما من تواصل، ما من أنفاس لاهثة دافئة، مجرّد تأمّل لرسوم ذات موضوعات رقيقة لكنْ عفا عليها الزمن. شخصيات ذات خطوط لم تكد

---

(١) ثيودور أندريه مونود (١٩٠٢ – ٢٠٠٠)، عالم طبيعة فرنسي. أهم من تخصّص في الصحراء الغربية. ملتزم بالقضايا الإنسانية. (م).

تُرسَم، دون عمق، ذات أناقة فائقة. أنا، هذا جعلني أغتبط. ومن ثم، في النهاية، يأخذ الكاتب مسافة، يغيّر رأيه، يبتعد، تضطرب الخطوط قليلاً... «آه سيدي، هذه النهاية الغامضة... هل فهمت هذا؟» ركب بريهييه أعالي البحار. وحدهم الذين يحبّونني فليتبعوني. أنا تبعتُ، وبأي كيفيّة!

ضحكات مسرورة. نحن أيضاً. كل الناس يتبعون. يا لها من أمسية... آه كان ذلك حظاً، كان أورتيل يصل إلى أفضل ما عنده. الفكر نفسه. مبهر. لو رأيته... ثمة أيام... يكون فيها الذكاء عينه، الحساسية. حساسية الذكاء... هذا هو الأكثر ندرةً. آه، لو أنه لم يكن قد لوّن، قد رسم، لو أنه لم يكن قد كتب قصائد في غاية الروعة، لكان قد أضحى ناقداً مدهشاً، يا لروعته!

* * *

«عليَّ القول إني، أنا، صُدِمْتُ بعبقرية بريهييه، منذ البداية... قبل ثمار الذهب بكثير. منذ إصداره مجموعته القصصية القصيرة الأولى... كانت فعلاً مدهشة جداً...»

كما حين تضطرم النار فجأةً وسط حشد من الناس كان يسير بسكينة، فيبدأ التدافع، التساؤل، الركض، في أثناء مرور اللحظة الأولى من الذهول، حينها، ينطلق داخله الاضطراب، لكنْ ما الأمر؟ ماذا حدث؟ كيف تجرّأ، هناك، في وضح النهار، أمام كل الناس، بكثير من الشماتة، بجسارة غايةً في البرود! هي لا تستطيع تصديق ما سمعتْه أذناها، ما رأتْه عيناها... هي واثقة من ذلك... هي تراه بوضوح من جديد... تُرسَم معالم ذلك بنقاء عظيم: في أعلى الصفحة في الجريدة، إلى اليمين، في مكانهما المعتاد، مؤطَّرَيْن بخطّ أسود سميك، العمودان المكتوبان بأحرف دقيقة، وفي آخر الصفحة...

هي لا تميّز كل حرف، لكنها تتعرَّفه إليه، تراه: توقيعه... هذه الكلمة الطويلة المؤلّفة من مقاطع عديدة، وحدها، لا يسبقها أيّ اختصار، أيّ اسم أول... إنه يوقّع دوماً هكذا... ميتّوتال[1]، هو ذلك تماماً... هي تراه، هي تشعر به، مسجَّل داخلها... حول هذا الاسم، كما هي نثرات عيدان القشّ المختلِطة بحجر الرحى حول الوتد الذي يجمعها ويدعمها، تأتي الانطباعات، المشاعر التي كانت قد أحسّت بها، حالاً لتلتفّ: قليل من الشفقة على بريهييه المسكين هذا، الغاية في اللطف، الغاية في الرقّة، قليل من الازدراء، سكينة غامضة، رضا ماسخ الطعم ومقزّز قليلاً، وخاصةً، قليل من الدهشة: هكذا فليتحزَّب ميتّوتال، بشكل شبه عنيف، وهو من بين الجميع، غاية في الحذر، غاية في الاعتدال، ضد هذا الكتاب الغريب، المتمنِّع، الذي استطاع بعض النقّاد من الأكثر خبرةً الكشف فيه عن كثير من الوعود... لا، لا توجد وسيلة للشك في ذلك، إنه هناك، داخلها: ثمة شيء من النشاط، من الحياة هناك، حاول الآخر سحقه، أمسك به الآخر بكتمان لخنقه. وقع اعتداء للتوّ لا يمكن التسامح معه. محاولة اغتيال بشعة. جرى قلب النظام العام. جرى العبث بالعدالة.

يجب أن تتوقف تماماً هذه الفضيحة، هذا النضال الذي يمزّقها... كل قواها مشدودة، وهي تنظر... ربما لم تكن الكلمة في آخر الصفحة هي ميتّوتال. هل هي متأكّدة من أنها لم تكن كلمة أخرى طويلة جداً، كلمتين... ألم يكن ثمة من فاصل بينهما؟ «بالوكالة»، ربما كانت هي تلك؟ وهذه الانطباعات، وهذه المشاعر، هل هي متأكّدة حتماً من أنها أحسّت بها

---

(١) اسم عَلَم يوحي بلفظ «معدن» بالفرنسية. (م).

بالضبط في تلك المرّة؟... تتهالك ذاكرتها، هي متعبة... تنسى بسهولة، تختلط عليها الأمور... هي جاهزة للتضحية بذاتها... أليس تغيير الذات بأفضل من تغيير وجه العالَم؟ تشعر الآن بالارتياح... لم يحدث أدنى اعتداء. لم يكن قد جرى العبث بالعدالة، لم يتوقّف النظام العام عن السيادة قط.

لكنْ ها هو ذا النضال يعاود مع العنف المتصاعد... لا يمكن فعل شيء: إنه هناك، يرتسم ذلك بأوضح من ذي قبل... لا يوجد أثر للفاصل... كلمة واحدة طويلة... كأنّ المقطع الأخير منتصب: تال... ميتّوتال... وكانت المقالة نقداً لاذعاً تماماً. ينبعث ذلك، ينتشر، يتضخّم، يضغط، يريد كسر كل الدفاعات، يندفع إلى الخارج، ينفرش، يسحق المعتدي بوزنه الثقيل... بعد لحظة سينبثق ذلك، سيراه الجميع، وهو –الصورة تجعله منكمشاً - هو، جالس هناك، غاية في القساوة والوضوح، غاية في الجدارة والثقة بالنفس، سوف يظهر فجأةً بمظهر السيد المحترم، الموضوع والمزوّق بشكل صحيح تماماً، ما يجعل خادمة الأطفال المقهورة تجبره على الخروج من خلف الشجيرات لتدلّ المارّة عليه...

لا، هذا مستحيل، بأيّ ثمن يجب الإمساك عن الكلمات التي تترنّح، التي تريد الانطلاق، لكنها لن تستطيع احتواءها... هي تسحبها، هي تمسك بها من جديد... ليس هكذا... ببطء... ستشذّب زواياها، سترقّش بروزاتها، ستلفّها جيداً: كتلٌ ضخمة طريّة قليلاً ستجعله يترنّح بلطف، ستدغدغه، من أجل الضحك فقط، ضحكة عالية مسلّية، صوت مضخّم طيب، تقطّب حاجبيها وتزمّ شفتيها بمظهر ازدراء متصنّع: «لكنْ قل لي، يا ميتّوتال، فأنا هنا أمسك بك... لكنْ أتعرف بأنك كذّاب رهيب...» ها هو ذا، لم يؤذه ذلك... ما الأذى الذي يحمله ذلك؟ مَنْ يُصدَم حقاً من

ذلك؟ أما هي، فهذا يسلّيها كثيراً. أراد المزاح، أو أنه نسي، أو ربما (ومَنْ لم يفعل ذلك قط فليرجمه بحجر)[1] ربما أراد أن يتنمَّر؟ ها هو ذا... بما أن الأمر الأكثر دقّةً، الأكثر خطورةً قد مرّ الآن، يمكن للباقي أن يأتي: «أعتقد تماماً، تهزّ إصبعها، أعتقد تماماً بأني أتذكّر أنك لم تكن حنوناً جداً... تطلق العنان لنفسها، متحرِّرة... على بريهييه، في تلك اللحظة بالضبط... حين نشر قصصه القصيرة...»

يلتفت إليها بعينين جاحظتين، بارزتين قليلاً من محجريهما، سيبتسم، سيهزّ رأسه كما يفعل الكبار حين يؤخَذ الأطفال صعاب المِراس بواحدٍ من مقالبهم، آه، لهؤلاء الشياطين الصغار الفِظاظ... سينظر إليها، محرّكاً رأسه ضاحكاً: لكنكِ رهيبة، لا يمكن خداعك. ما من سبيل معك للتنمُّر، للكذب قليلاً... لا يمكن فعل شيء، يجب الاعتراف: هذا صحيح، بادئ ذي بدء، أتذكّر أني كتبتُ ورقة بسرعة كبيرة، لم يكد يكون لديّ الوقت الكافي للتصفّح... قلتُ فعلاً... هي لا تطلب شيئاً أكثر من ذلك، لا نحتاج إلى أكثر من ذلك من أجل إبعاد التهديد، كي يتنفّس الجميع بحرّية. سلام. عدالة. تناغم. براءة العُمر المبكّر. خفّة الفرح. مأخوذة إلى وضح النهار، مُستعادة في كلّ حقوقها، موضوعة في مكانها، على عرشها، مقدّسة، ستلتمع الحقيقة المطلقة، ستداعب أشعتها عالماً مُنَقّى...

يلامسها للحظة بنظرته الفارغة ويشيح بعينيه عنها...

---

(١) تذكّرنا هذه الجملة بقول السيد المسيح لليهود الذين أرادوا قتل مريم المجدلية: «مَنْ كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر». (م).

ما هذا؟ مَنْ يجعل النظام العام يضطرب؟ ما ماهيّة هذه المجنونة، هذه المُلهَمة التي تجوب الأرض، حافية القدمين ورثّة الثياب، تصرخ في الساحات العامة، تضرب صدرها نادمة على خطيئتها العظيمة، تدعو إلى التوبة، تبشّر بأقوال المسيح، تشير بمخلبها إلى عظماء هذه الأرض، تهزأ من النظام القائم، تعلن عن يوم الحساب... تتمّ الإحاطة بها. تَرجُمُها نظراتهم. هي مبعَدة، مطرودة. تنغلق دائرة المؤمنين من جديد. يعود الهدوء بعد لحظة الاضطراب. ترتفع الأكتاف لا مبالياً... ابتسامات... مَنْ ينتبه إلى استطرادات هؤلاء الأبرياء، هؤلاء المتخلّفين عقلياً؟ لنكنْ جديين: «اسمع، يا ميتّوتال، حدّثنا قليلاً... ألم يكتب بين هذه القصص القصيرة وثمار الذهب نصاً لم يُنشَر بعد، مدهشاً تماماً... أتذكر، كنتَ قد حدّثتنا عنه...»

* * *

آه كتاب ملعون... يمكن فحصه، تقسيمه في كل الاتجاهات، أفقياً، عمودياً، عرضياً، قطرياً، يمكن التعامل معه من كل الأطراف، يمكن تطبيق أيّ نوع من الجداول عليه... في كل مقطع، كل جملة، كل عنصر من الجملة، في كل كلمة، في كل مقطع صوتيّ، إن عُرِفَتْ كيفية رؤية الأمر، أيّ غنىً لم يُكتَشَف بعدُ، أيّ أثر له، أيّ منظور واسع، لا نهائيّ، لا يوجد فيه؟

أنا، ثمار الذهب، وجدتُ هذا شديد الإضحاك... ضحكتُ... كل الناس يجدون أنه كتاب غاية في الحزن، في المأساوية، لكنْ أنا، لو كنتَ تعرف مدى قدرتي على الضحك... ثمة مشاهد... حين فاته القطار... أو حين بحثت هذه الشخصية عن شمسيّتها، لا بدّ أنك تذكر، لكنه لا يُقاوَم...

وكأنه شارلو[1] الحقيقي. الأسلوب... القوة... أفضل من شارلو. هذا صحيح. كوميديّ عظيم. لم يرَ أحد هذا من قبل. مَنْ فكّر في قول ذلك؟ كوميديّ وتراجيديّ معاً. إنها مزيَّة كل الأعمال الفنية العظيمة.

كوميديّ؟ مارثا مدهشة. آه إنها هي فعلاً! تجد أن كتاب ثمار الذهب كوميديّ... لكنْ، أتعرف، لها الحق في ذلك. أنا أيضاً، وأنا أقرأ مقاطع معيّنة كنت أختنق، كان هذا مُهلِكاً من الضحك. إنه حقاً لَنكتة...

هزْل... هزْل متوحّش. رعب المَنيّة. رعب المَنيّة ونقاء السذاجة. نوع من البراءة. واضح. كامد. ثاقب. واثق. مبتسم. إنساني. قاسي القلب. جاف. نديّ. جليديّ. حارق. يحملني إلى عالم غير واقعي. إنه مجال الحلم. إنه العالم الأكثر واقعيةً الذي يمكن أن يوجد. ثمار الذهب، إنه كل ذلك.

كما هي الحال تحت أشعة الشمس، في كل تلك الأراضي الغاية في الخصوبة، تتفتّح النباتات الأكثر غرابةً، تنتصب الأشكال ذات الحواف الغريبة، تتجمّع الألوان، بالطريقة غير المتوقّعة نهائياً بالشكل الأكبر، بالطريقة الأكثر جسارةً، تشكّل هنا النبرات غير المنسجمة لدرجة الصراخ – ويا لَلمفاجأة – مجموعة كاملة من التناغم، من الجَمال.

- أنا، يجب أن أقول ذلك، هل سوف أجرؤ على الاعتراف به؟ لا تقتليني. يخبّئ رأسه مزاحاً خلف ذراعه المطويّة. أنا، أعترف بخطيئتي العظيمة، منذ القراءة الأولى... ما الخديعة التي سيخدعهم بها أيضاً؟ أيّ مقلب قد اخترع؟ ماذا سيفعل؟ هو غاية في العفوية، جذّاب

---

(١) شارلو هو الكوميدي شارلي شابلن. (م).

ويتصرّف على سجيّته، فما الجنون الذي لن يُغفَر له؟... حسناً نعم، هناك، لم أحبه، قرأتُ الصفحات الثلاثين الأولى وأنا أتثاءب، أغلقتُه من جديد وقلتُ لِـ لوس... يقلِّب عينيه كالمتآمر ذات اليمين وذات الشمال، يوشوش عالياً جداً: لوس، لا تقرئيه.

- لكن لا تصغي إليه، فهو كان مجنوناً تماماً به... غيّ، ماذا تقول؟

- بالتأكيد، من بعدُ... مع ذلك لستُ غبياً بشكل كامل، مع ذلك لستُ بهيمةً تماماً... من بعدُ، وبشكل طبيعي... حملتُه مع ذلك معي في العطلة، كنتُ أقول لنفسي، هذا غير ممكن، يجب قراءته أيضاً، كنتُ أقول لنفسي، ماذا هناك يا صاحِ، بدأتَ تقلقني، لا بدّ أنك مرهق للغاية، ثمة شيء ليس على ما يرام...

- وهناك، منذ اليوم الأول، لم نكن قد أفرغنا حقائبنا... كان لا بدّ من رؤيته، جالساً على سريره، الكتاب مفتوح أمامه، وهو يفكّ ربطة عنقه...

- آه هناك، أعترف بذلك، صُدِمْتُ. هذا صدمني. في الخامسة صباحاً، كنتُ هناك، في المكان عينه... أيقظتُ لوس...

- هذا صحيح، لقد هزّني... أوه ماذا هناك، أيّ كتابٍ هذا... كان يقرؤه دون توقّف، كان يحفظ مقاطع منه عن ظهر قلب، كنا نتكلّم عنه كل الوقت، فيفوتنا وقت تناول الوجبة، وقت الاستحمام...

ثمة مَنْ هم من قبل ثمار الذهب، وثمة مَنْ هم من بعده.

ونحن هؤلاء الذين هم من بعده. موسومين إلى الأبد.

جيل ثمار الذهب: سوف نبقى كذلك.

هذا صحيح. أنا موافق تماماً. منذ إصدار ثمار الذهب، تغيّر شيء ما بالنسبة لي بشكل نهائي. إنه زلزال، ثمار الذهب. إنه اضطراب فظيع. أتساءل أحياناً، مَنْ سوف يتجرّأ على الكتابة من جديد بعد ذلك؟

جرى الوصول إلى الحدّ. هناك، على أيّ حال، في هذا الاتجاه بالذات، الدرب مسدود.

- مدهش تماماً. نوع من الإعجاز، في الإجمال. نجاح كما هو الحال منذ ذلك الحين، لكني أبحث... منذ متى؟

- أوه أنت، يا عزيزي جان – بيير، أنت... إصبع متوحش يهتزّ أمام أنفه... تقول هذا لتسعدنا، نحن نعرفك...

يحمرّ وجهه، يتأرجح... «لكنْ كيف؟ لكنْ لماذا؟ لماذا تقولون هذا إذاً؟»

تبتسم العيون الساخرة، تهتزّ الرؤوس غير المصدِّقة... آه لا، قد يكون هذا مريحاً زيادة عن اللازم: هنا، لا يحصل التغلغل هكذا. يجب أن تكون براهين بعينها قد قُدِّمَت... يجب أن يكون ثمة ماضٍ أقلّ خداعاً. لقد ارتُكِبَت أخطاء شنيعة معيّنة، في لحظات بعينها، ومُنِحَ الآخرون، حين كانوا في السلطة، تعويضات زائدة عن اللازم قليلاً...

كانت ثمة، في البداية، مواقف معيّنة ملتبسة، نظرات ذات تعابير غير مباشرة، حالات صمت مكتومة... من المعروف أنه كانت ثمة تحفّظات... مَنِ

استخدم كلمات معيّنة قد لا يجرؤ المرء على ترددها، قد يكون أمراً متوحّشاً زيادة عن اللازم... لا، لسوء الحظ، فقد جرى إظهار عدم وجود شيء أساسيّ، معنى خاص، صيغة فكرية، موهبة معيّنة...

يجب الحذر جيداً من ترك حلفاء مشتبه بهم إلى هذا الحدّ على الباب، هؤلاء المناصرين الآتين في الساعة الأخيرة، الذين يتسبّبون للمجموعة بحالة مزرية. بهدوء وثبات، بضربة صغيرة خفيفة جداً... هذا مزعج، لكنْ لا بأس، فليكنْ... في أحوال بعينها، يجب على المرء السيطرة على إشفاقه... «جان – بيير هذا، يريد إسعادنا، إنه لطيف جداً...»

لكنْ نحن هنا، بين بعضنا، نحن، المؤمنين، الواثقين، نحن الذين لم نستسلم قط، نحن الذين سهرنا دوماً على الشعلة، ووسط أي عواصف، ونحن محاطون بأي خطر! نستطيع أن نقول ذلك بصوت عالٍ جداً، ونحن نقوله، الآن وقد حانت ساعتنا أخيراً: «سوف يكون ثمة مَنْ هم من قبل وثمة مَنْ هم من بعد ثمار الذهب. وسوف نكون هؤلاء الذين هم من بعده».

* * *

- إذاً، ما الذي يُحكى هنا، في باريس؟ ما الذي يجري؟ ما هي آخر صرعة، أحدث موضوع مفضَّل؟ ذلك لأني، أنا، من الريف، أنا فلاح... لا أدرك إلا أصداء غامضة، هناك، وأنا ضائع في ركني... كل الناس متحمِّسون لِـ ثمار الذهب، كما يبدو... قرأتُ في الكتاب قليلاً... حسناً، لا أدري إنْ كنتَ من رأيي... لكني أرى أن هذا ضعيف. أعتقد أنه لا يساوي شيئاً على الإطلاق... لكن، لا شيء، هاه؟ صفر. لا؟ ألا توافق؟

- لا، لا... يهزّ رأسه دون أن يتكلّم، هو لديه الرغبة، كما يفعل الطفل الهادئ الذي يرى رفيقه متلهّياً، من خلف ظهر الكبار... أوه، ماذا يفعل، هذا ممنوع، هو مجنون، أوه، وهذه الكلمات السيئة التي يقولها... لديه الرغبة في وضع يده على فمه، في رفع كتفيه بخوف، في جحظ عينيه، في انتفاضه من الاستثارة الفرِحة، يشعر بضحكات عصبية تتعالى داخله... يحرّك رأسه بضعف إشارةً منه إلى الإنكار.

- لا؟ ألا توافقني؟ هيا، أنت لست صادقاً، تحاول خداعي... من غير الممكن أنك كنتَ تجد هذا جيداً... هذا العمل الذي لا قيمة له... لا يساوي شيئاً. مُدَّعٍ... لكنْ لمَ تضحك؟ ما الذي يسلّيكَ إلى هذا الحدّ؟ أتجد أن ما أقوله غباء؟

-أوه، لا، ليس الأمر هكذا... لكنك مضحك جداً. لا تستطيع أن تتخيّل... أوه، هذا في منتهى الطيبة... سانداً جبهته على كفّه، هازّاً رأسه... لا، هذا مُهلِك من الضحك...

- ماذا؟ ما هو المُهلِك من الضحك؟ أنني لا أستسلم، أنني لا أكون متأثّراً بكل هؤلاء المتحذلقين، هؤلاء الأغبياء؟

- أوه، هؤلاء الأغبياء... برولیه... ميتّوتال، رامون، لوميه، بارّو، أغبياء... ها، ها... استمعوا... آه أنا أختنق... أودّ أن يسمعك أحد ما... لكنك تعرف... لا، لا تتخيّل كم أنتَ مضحك... لو كنتُ أحكي... لكنْ لا تخشَ شيئاً، لن أحكي هذا... فضلاً عن أنّ أحداً لن يصدقني... لا، يجب الاستماع إلى ذلك... يجب... لكنك

مضحك جداً... لن أتخلّى عن مكاني... إذاً، لا، جدّياً، إذاً تجده عملاً لا قيمة له؟ تجده سيئاً، ثمار الذهب؟ ها، ها...

- نعم بالطبع الكلمات بصعوبة، بين فُواقتين... بجدّية... ثمار الذهب، هذا الذي لا قيمة له...

- نعم، نعم، لن أسحب شيئاً قلتُه. وتستطيع الضحك ما شئتَ. وتستطيع أن تقول ذلك لمَنْ تشاء... يرفع الآخر يده للاحتجاج... لمَنْ تشاء، لن أخجل من ذلك. وسيضحك كثيراً مَنْ يضحك أخيراً. إنه لا شيء، ثمار الذهب. كثير الادّعاء. من هنا جاء هذا النجاح. مليء بالغموض المزيّف. بِـ«موضوعات كبيرة». بأسلوب متعالٍ، صعب الفهم قليلاً... هذا يؤدي إلى الأفضل... هو يغطي الأمر غالباً بأقنعة... سأقول لك ماذا... ستجد هذا مسلّياً جداً: تفاهة عظيمة في الفكر، في المشاعر... كثير من التفاهة... إنه مذهل من وقت إلى آخر.

- آه هنا، عليَّ إيقافك. يتوقف الضحك فجأةً. يصبح الوجه جدّياً. لا، هنا، يجب أن أقول لك. لم أعد أمزح. هنا، حقاً، أنت أخطأت. أتعرف ما يمكن أن يأتيك عليه الجواب؟ قد يقال لك: لكنْ ألا ترى؟ كيف لا ترى أن هذه الناحية التافهة، هذه الناحية التسطيحية التي تتكلّم عنها، ذلك، بالضبط، أراده بريهييه، وفعله عمداً.

كم شخصاً هكذا، بالاستيلاء على قصيدة، على رواية يبهر بريقها كل العيون، يتجاسر على الشدّ عليها في قبضته القادرة، على الكبس على الأماكن الهشّة بوحشية، على الضغط... هنا؟ انظر، هذا لا يتحمّل... وهنا أيضاً...

انظر كم هو ضعيف، كم هو طريّ... إنها ميلودراما، مجرد اتفاق على أنها ذات معنى، هي سلعة بلا قيمة... هذا سوقيّ، هذا مسطَّح...

ولا أحد يحتجّ، يُصغى إليهما بصمت. يُنظر إليهما وهما يستعرضان، ثملَيْن من الشعور بحرية فكرهما، ببصيرتيهما، يُترَكان وهما يضغطان بشكل أقوى، وأقوى أيضاً، وهما يغرقان أكثر عمقاً مع صرخات منتصرة. ومن ثم، مثل طلقة المسدّس في رقبتيهما، صوت الطرق المختصر ذاك: «لكنْ كل ذلك، ألا ترى؟ أنه مصنوع عمداً».

إنّ مَنْ يتلقّى هذا الإطلاق يترنّح، يقع، يرقد أرضاً، فاقداً دمه كلّه. الحاضرون، فضوليين، مُشفقين، يقتربون، ينحنون: كانت تلك هي إذاً القامة المخيفة التي تلوِّح بقبضتها الضخمة وتُرينا: «انظروا، أيها الناس الطيبون، تمعَّنوا... هناك، مثلاً... هنا، إصبعي ينغمس دون جهد... أفتح الشيء إلى اثنين وأجعلكم ترونه. الغرض ذو المظهر البرّاق قوّةً، حياةً، يشبه ثمرة ناضجة». يا لَلشخص المسكين، نضارة وجهه الآن واضحة. وإلى ها هنا أودتْ به وقاحته، سذاجته المُغَفَّلة، عدم حساسيته. لكنْ أيضاً، كيف يمكن، وهو على ما هو عليه من العمى والغباء الشديدين، كيف، أسألكم عن ذلك، كيف يمكن عدم الرؤية، لَمَنْ لا يرى ذلك؟ هذا يقلع العين: هذه التفاهات، كما كان يُسمّيها، التعس، هذه التفاهات التي كانت تسبّب له صدمة إلى حدّ كبير، قد وُضعت هناك عمداً.

كُسِرَتْ مقاومتُهم، حتى في زواياهم المنعزلة الأكثر سرّيةً، يتقدّم المعتدي، ساحقاً في دربه هذه الأفراح الرقيقة، هذه الشهوات، هذا الحماس، هذا الحِسّ بالنمو وبالانتشار الذي كان لديهم، حين كانوا يقرؤون، وحيدين

في غرف نومهم، متوقِّفين عن القراءة من وقت إلى آخر من أجل أن يلتّوا ويعجنوا، من أجل أن يتذوّقوا، من أجل أن ينتفخوا بالانتظار، دون عجلة، قبل أن يستعيدوا قراءتهم، قبل أن يتصفّحوا، أن يعيدوا القراءة ببطء، أن يتركوا أنفسهم ينزلون نحو أيّ انتعاش مظَلَّل، نحو أيّ أعماق مُزرَقّة... الآن كل ذلك مُلَطَّخ، مُخَرَّب: أشياء فقيرة تمسك بها أيادٍ وحشية وتلقي بها خارجاً. هاك، انظر. هذا هو ما تحبّه. هذه هي تلك العجائب، تلك الهاوية التي تسحرك... هذه المشاعر «الحقيقية» جداً التي تسبّب تقلّص قلبك بلذّة... سخافات ضحلة، مظاهر خدّاعة بائسة. متحف غريفان[1]. سوقيّة. شِعر بلا قيمة...

وقعوا، واهِني القوى. الرؤية ضبابية، يتلمّسون طريقهم بضعف من كل جانب، باحثين عن النجدة. وهناك، في متناولهم، لا يعرفون بالضبط ما هو، لا بُدّ من أنه شيء ما ثقيل، يسبّب الرضّ... يتمدّدون، ويمسكون بذلك، ويرفعونه بما تبقّى لهم من قوى ويرمون به رأس العدو المنتصِر: «لكنْ كل ذلك، مصنوع عمداً».

معجزة. في لحظة، ينقلب الوضع. يترنّح المعتدي، يتهاوى، مغشيّاً عليه.

«عمداً. مصنوع عمداً. ما لك، كيف لا ترى ذلك؟»

جعلته الضربة يترنّح، يرى حزماً من الشرر، يرى أمام عينيه ستة وثلاثين شمعداناً. يحاول أن يتمسّك بأي شيء كي لا يقع... «كيف عمداً؟ لكنْ أصغِ إليَّ، هذا ليس عذراً... إن كان الكاتب قد فعلها عمداً، فلا بأس هذا شأنه...»

---

(١) متحف غريفان هو متحف الشمع في باريس. (م).

ينتصب من جديد... «إن كان يكتب التفاهات، عمداً أو لا، فهو ينقصه الذوق، هذا كل ما في الأمر. –لكنه يفعلها عمداً، تصوّر، في ألا يبرهن عن ذوقٍ». تجعله الضربة الجديدة يتمايل، فيتشبّث... «لكنْ إذاً، يجب أن يشعر المرء بذلك. –لكنْ كل الناس يشعرون بذلك، إلا أنت. الناس الذين يرون أنفسهم قليلاً فيه، على أي حال، هم لا ينخدعون به». يحاول جاهداً، قدر استطاعته، أن يعاود الانتصاب... «لكنْ يجب أن يكون الأمر بدهيّاً... أن يصلح لأن يظهِر التضاد مع شيء لا يكون مسطَّحاً، وإلا فإنه قد تتمّ المخاطرة بأخذها، لتلك التفاهة... تعاوده القوى شيئاً فشيئاً، ويقف منتصباً جيداً الآن... تُعَدّ هذه التفاهة من الفن... هذه المرّة، إنه هو الذي يهاجم وهم ينظرون إليه متفاجئين، يتراجعون، مستعدّين لتفادي الضربة... كل صانعي التفاهات، إن كنتم تريدون أن أقول لكم الأمر بصراحة، يفعلون ذلك عمداً. كل الناس يفعلون الأمر دوماً، كما يُرى من وجهة النظر تلك». لم يتركوا أنفسهم خائفين، فيهاجمونه من جديد: «تصوّر أنّ صنّاع التفاهات لا يعرفون أنهم يكتبون بتسطيح. أمَّا هو، فيعرف ذلك. هو يفعله عمداً، كيف بك لا تفهم ذلك؟ - لكنْ كيف تجري معرفة ذلك... انتظر... كيف؟... يطلق صرخات ضعيفة، مثل صرير الفئران... كيف تجري معرفة ذلك، بأنه فعلها عمداً؟ - لكنّ ذلك معروف... يهزّونه. يمكن معرفة ذلك لأنه معلّم في استعمال وسائله، لا يمكنه أن يخطئ، هو يعلم دوماً ماذا يفعل...» يصدح صوت امرأة: «ومن ثم فقد قالها». يصرخ هذه المرّة بكل قواه: «آه، قالها؟ لمَنْ؟ - قالها، قالها في مقابلة إعلاميّة... لقد سمعتُه، تكلّم عن ذلك في المذياع... قال: أردتُ أن أصنع الأدبيّ، الاصطلاحيّ... أتفهم...» لم يتعرّف صوته: «لكنْ ربما قالها ليدافع عن نفسه. ربما هي حيلة منه. حيلة... لم يكن يقدر

أن يفعل أمراً آخر...» هذه المرّة، طفح الكيل. ينقضّون عليه جميعاً ويضربونه ضرباً مبرحاً، «كيف تقدر؟ أنت... لكنك تفقد عقلك. إنها عبقرية. أعطى براهينه. أنت تنسى هذا التفصيل، يا صديقي العزيز. أنت تنسى ما فعله... أي أعمال رائعة... – رائعة! لا أعرفها... كل ما كتبه هو كذلك... يضحك ضحكة المجنون... مسطّح، مسطّح، مسطّح، ها، ها... عمداً... هي طيبة، ها، ها... عمداً، عمداً...»، فيما هم يُلبسونه قميص المجانين ويحملونه بالقوّة.

- أيفاجئك هذا؟ هاه؟ ما قد يقولونه لك – هم يقولونه دوماً في مثل هذه الحالات – ما قد يجيبونك به، كل الفكر القويّ، من أمثال ميتّوتال، بروليه، إنْ خَطَرَ لك فجأة أن تحدّثهم عن هذه التفاهة، عن هذه المشاعر التافهة التي وجدتَها في ثمار الذهب. ما الذي تستطيع أن تجيبه حول ذلك؟ كيف ستتنصّل، هذه المرّة، من ذلك، هاه؟ أنت الرجل الذي لا يهاب المخاطر. كنت أنتظرك هناك. أنا، ربما، لن أطلب أفضل من ذلك، كما تعلم، لو كنت أقدر... أنا نفسي، تساءلتُ، من حين إلى آخر، أعترف لك بذلك... لكنّ هذه تجعلني، أنا، أضطرب دوماً، هذه الذريعة.

- هذه تجعلك تضطرب، في اللحظة التي يخرجون لك البَلَه؟ أَهذا مصنوع عمداً؟ آه، هي ممتازة، جيدة جداً، تلك الذريعة. أحقاً ثمة أناس يتركون أنفسهم فريسة للخوف من هذا، دون مزاح منك؟

- نعم، تصوّر. أنا نفسي لا أعرف أبداً بما أجيب بشكل لائق حين أُحاجّ في ذلك. لا شيء يُقال. أحاول، ما في وِسْعي، أن أدافع عن نفسي قليلاً، لكنّ الذريعة قويّة.

- قويّة؟ لكنها، حقاً، لا تصمد.

- أشعر تماماً أنه ربما يكون لك الحق. لكنْ قلْ لماذا. وقع المرء في الفخ في هذه الحيلة. تجري المناظرة، دون إمكان الخروج منها.

- أنا سوف أخرج منها، أرجوك أن تصدّقني.

- حسناً، كيف؟ كيف؟ قلْ لي ذلك.

- هذا ليس صعباً: لا يمكن عمل التسطيح عمداً. هذا لا يصمد... إنه مضحك.... «يتطاول، يتطاول، بكل قواه المشدودة... ينزلق الوحش الرطب من بين يديه... يحاول الإمساك به...» لكنْ ماذا يعني: رغب في عمل التسطيح؟ ماذا يعني هذا؟ نحن هنا في مجال الفن، ولسنا على مستوى ملاحظاتنا الشخصية الصغيرة. رغب في جعل التسطيح مادةً للعمل الفني؟ أَهذا هو؟ من خلال طرفه، أمسك بهذا الشيء المعلَّق اللزج والكامد الذي يقاوم. لكنه لا يفلته... عمل فني. إنه هو تماماً...«يضحك هازئاً، متفاجئاً قليلاً... مثل شخص ينقل أغراض البيت، كان قد أمسك، بآخر ما تطوله ذراعه، بطردٍ خالَهُ خفيفاً... كالريشة بالنسبة لي، وزنه لا يساوي شيئاً، سوف ترون... وبعد أن مشى خطوتين، اضطرّ لوضعه أرضاً، محمرّاً كلّه، يمسح عَرَقه عن جبينه... آه يا الله، لم أكن أعتقد... لكنْ قل لي، ماذا يوجد فيه إذاً؟ لكنّ هذا الشيء هنا يحوي رصاصاً... يبتسم ابتسامة منزعجة قليلاً: «لكنْ هيا، أَلن تجبرني على إعطائك درساً؟

- بلى، أتوسّل إليك، اشرح فكرتك. فهذا في حاجة إلى توضيح. أنت مبرِّز في هذا. إنه لُمِلٌّ الاستماع إلى تكرار هذا في كل مكان، في ما يخصّ كل شيء. لكنه أقلّ بساطةً مما يعتقده المرء».

يتحرّك جيئةً وذهاباً، غاضباً: «إنه بسيط زيادة عن اللازم. إنه واضح زيادة عن اللازم...»

- نعم، نعم، إنه كذلك. لقد وجدتَ: إنه غاية في البساطة لدرجة أنه لا يمكن الوصول إليه... إنه من تلك الأشياء البدهيّة... لا يمكن الوصول إلى تحليلها بدقّة...
- لكنْ نعم، بالتأكيد، إنه بسيط جداً... هذا السيد، ماذا قلتَ اسمه؟ كاتب ثمار الذهب؟ بريهييه، نعم هو كذلك... حسناً، كان يريد إظهار شيء مسطَّح، متَّفَق عليه، تافه. ولِمَ لا؟ التفاهة، أو الغباء، أو البشاعة، أو أيّ شيء آخر، يمكن أن يكون مادةً ممتازة لعمل فنّي. فقط تلك التفاهة قد لا تؤثّر عليك بالطريقة عينها التي تشعر بها في ثمار الذهب... يتوقّف، فجأةً وقد هدأ. هو يمسك جيداً بالأمر كله الآن. لقد أعاد الإمساك به بطريقة أكثر راحةً... ما مِنْ شيء مشترك بين الإحساس الذي تعطيه التفاهة غير المرغوب فيها، غير المشغولة، التفاهة على وضعها الخام، غير النقيّ، المقزِّز، المكتوم، تلك التي يدركها المرء نفسه بشكل غامض، حول ذاته، تلك التي تتغلغل فيك مثل رائحة غامضة، وبين تلك التي تتبيّن لك في عمل فنّي، مسيطَر عليه... لكني أحقّق انتصارات سهلة...

- لكنْ لا، تكلّم، أنت لا تعرف أي خير تفعله لي... ها هو ذا ما يجب الإجابة به عليهم...

- لكنهم يعرفون ذلك. هم يصطنعون الأمر. يحاولون خداعك.

- لكنْ لا، أؤكّد لك. معظم الناس لا يحاولون الفهم. قيل لهم ذلك: هذا مصنوع عمداً، وهذا ما سمّرهم في مكانهم، هم لا يعرفون بالضبط لماذا. وهم يستخدمون ذلك بدورهم ككلمة سرّ، كطلسم.

- حسناً، لا يساوي شيئاً، طلسمهم هذا. التفاهة، لو أنّ بريهييه حقاً قد صنع منها المادة التي يعمل عليها، لكان رسّبها، كثّفها: تفاهة مكثَّفة، عنيفة، منعشة، مُشِعّة، بهيّة. ليس ذلك القرف الذي قد توحي به، هذا الإحساس بالتواصل المقزِّز... قد تأخذ أبعادها... قد تصبح غَرَضاً فنّياً... قد توقِظ الفرح. قد يتحرّر المرء من شرّها، قد يُنقَذ... قد يصبح كل شيء مختلفاً، لو كان قد فعل ذلك عمداً. لكنه بالضبط لم يفعل ذلك عمداً. ربما، ليتم على ذلك... أو أنه انتبه بعد لَأْيٍ إلى أنّ العمل يحوي تفاهة، أماكن لم يكن فيها سيّد مادته، فأراد التهرّب قائلاً: لكني فعلت ذلك عمداً.

- نعم، هذا صحيح، نعم، بالتأكيد، إنها حيلة... على الكتّاب استعمالها غالباً، هم يغشّون هكذا. أهي ميلودراما؟ لكنْ بالتأكيد. هذا ما كنت أريده، تبّاً، كيف لم ترَ أنت ذلك؟ يشعر الآخر فوراً بالارتباك، فيتراجع محمرّاً...

- لكني سأقول لك: هم ربما يفعلون ذلك عمداً. ربما أراد بريهييه ذلك... لاحظ أنني لا أصدّق شيئاً... لكنه لو أراد فعل ذلك عمداً،

فقد خابت ضربته. لم يُرِدْ ذلك كما يجب. لقد ترك المبتَذَل على حالته الطبيعية، تركه بلا شكل، مشكوكاً به... نعم، إنه كذلك: هو مشكوك به. هذا هو الأساسيّ في الأمر. يكتشفه القارئ كما يفعل ذلك في الحياة، بوسائله الخاصة. عليه أن يقوم بالعمل. لم يؤدِّ الكاتب عمله، ترك قياده لهذه التفاهة، تزاوج مع رخاوتها، مع ارتباكها، ترك نفسه ليتلوّث بعدم نقائها. لم يروّضها. لم يصنع عملاً فنّياً، بل صنع خداعاً. إنه مسطَّح مثل الواقع كما يظهر للوهلة الأولى. هاك. لقد أعطيتك درساً. وفي أثناء كل هذا الوقت، كنت تسخر منّي. كنت تخادعني. أنت تعرف أفضل منّي، عن كل هذا.

- لا، أؤكّد لك. كنت أشعر بذلك بشكل مرتبك. لكنه مثل شلّة الخيوط التي لا أتوصّل إلى تسريحها. أنت لا تعرف مدى أذيّة تلك الحيلة. يجري إخراجها لك في كل لحظة وكل مناسبة. حالما يريد الناس الدفاع عن شيء حقير... كما تعرف، فواحد من تلك الأعمال التي، ولأسباب غامضة... لم أفهم قط من خلال أي آليّة... لكنّ هذا يحدث باستمرار... كتب لا تساوي شيئاً أبداً تصبح فجأة محظورة... ليس لأحد الحق في لمسها... أتذكر حين كان الناس كلّهم يرفعون الصغير إلى السُّحُب... كيف؟ كيف كان فعلاً؟ لكنْ نعم... منذ ثلاث سنوات... أنت ترى مَنْ أقصد...

- بيتويت؟ أَعَنْهُ تريد التحدّث؟

- نعم، عنه، عنه، ها، ها، بيتويت الصغير... أتذكر... كَشْف منتصف القرن... العبقرية الأعظم...»

ملتصقين واحدهما بالآخر، مُشكِّلين جسداً واحداً فقط مثل جواد السباق وفارسه، يرتفعان، يتعاليان... «بيتويت الصغير، نعم، لم تكن سيئة، تلك... الانحناءة، كانت هي تلك... هكذا كان عنوان كتابه، هاه؟» معاً، دون جهد متجاوِز للعقبة، يعودان للوقوع... «نسخة مقلَّدة حقيقية، أليس كذلك؟ حقاً سيئة جداً...» الآن، أيها الجواد الطيب، فقط سأضيف هذا أيضاً لإنهاء الموضوع، فقط هذا الحاجز الأخير أيضاً، سنتجاوزه، نحن الاثنين فقط، نحن واثقان من النصر، لا شيء يمكنه كسر اندفاعنا، هيا، مرّة أخرى أيضاً، من أجل هذا الاختبار الأخير، إلى الأمام: «والأقنعة، لِـ بولّي[1]؟ قل لي، ماذا كان رأيك به؟ - بولّي؟ لكنْ الشيء عينه مثلك، بالتأكيد. هناك ثمة من مواهب أكيدة. ربما هذا ليس بالأهمية عينها التي تقال عنه، لكنْ... لكنْ... – نعم، أنا متفق معك تماماً... فكّرتُ مثلك بالضبط. ليس بأنه لا يساوي شيئاً، هو بعيد عن ذلك. ليس شيئاً من اللامبالاة...»

الآن، وقد انتصبا من جديد، كل عضلاتهما قد استرختْ، متأرجحين بشكل لامبالٍ، من هنا، من هناك يتمشّيان، يتسكّعان... «آه هذا غريب جداً، هذا الوَلَع... هذا التحيّز، فجأةً، لأيّ شيء... هذا الشغف، ضراوة الناس هذه... ومن ثم يجري التخلّص من هذا، ولا ندري تماماً كيف... – أوه، يجري التخلّص من هذا... يلزمنا سنوات أحياناً، يلزمنا جيل أو جيلان أحياناً... ثمة سمعة معيّنة تتميّز بالثبات المتشبِّث... هاك، فارانجيه، مثلاً... لا أدري إنْ كنتَ مثلي، لكنّ شِعره...»

---

(١) موني بولّي (١٩٠٤–١٩٦٨). كاتب وشاعر سوريالي، فرنسي- صربي. (م).

ما هذا؟ ما الذي يحدث؟ لم يكن ثمة من شيء مع ذلك، ليس ثمة من عقبة ولو صغيرة لتجاوزها، لا خندق، ولا حاجز، كان يجري التنزّه بالخطوة الطبيعية في مضمار مسطّح تماماً، واصطدم مع ذلك، وها هو ذا ينتصب... «آه لا، أنا أوقفك هنا. اصمت. لا، فيما يتعلّق بـ فارانجيه، هذا غير مسموح به. مواراباته عمل فنّي حقيقي. هنا إذاً، لا يجوز المزاح، هاه؟ إنه أعجوبة». الفارس المسكين، بعد سقوطه من على السرج، يقع، يُجَرّ على الأرضية الموحِلة، مسحولاً... «إنه بعظمة مالارميه[1]. لا يوجد أحد اليوم... لا أحد يصل إلى روعته... إنه أقوى بكثير من فاليري...»

لا يزال شارداً، مرتجفاً، مصدوماً تماماً، يعود فيقوم، يركض... توقَّف، لا تتركْني، ها أنا ذا قادم، انتظرني... «أنا لا أرفض كلّ شيء في العموم، طبيعياً، أعترف بأن فارانجيه في قصائده الأولى... كتب في شبابه أبياتاً من الشِّعر ممتازة...

- لا، أبداً. لكنْ لا على الإطلاق. كانت قصائده في شبابه جذّابة، لكنّ قصائده في أثناء نضجه هي الأجمل من بعيد. كل قوّته، كل علمه، قد جاءاه متأخراً. هاك، ما عندي ذاكرة... لكنْ هذا، مثلاً – إنه في ديوان مصادر – هذا، ما رأيك به، هذا، هاك: أحجار صوّان تختفي من النهار الباقي تختم بخاتمها دِنان السماء. هاه، ما رأيك به؟ لا تقل لي إنه غير جميل. وهذا: والنار والسماء اللازورديّة... ل ل... ل ل... ليلتي... ينزعون... لا... ليس هذا... لا... هاك... إنه مدهش:

---

(١) ستيفان مالارميه **(١٨٤٢ - ١٨٩٨)** شاعر فرنسي ينتمي إلى تيار الرمزية ويُعَدّ واحداً من روّادها. **(م)**.

والنار والسماء اللازورديّة تنزع عني ليلتي[1]. كل شيء في هذا الديوان الرائع متناسق».

انتظر، أنا أتبعُك... لا يمكننا الافتراق هكذا، في حالة الذوبان الغاية في الكمال، وقد تجاوزنا هذا الكمّ الكبير من العوائق، حين جُبنا معاً عالماً مَغزوّاً. لا يمكن ترك الرفيق المخلص بوحشية هكذا... لا أستطيع التحمُّل بأن أجد نفسي وحيداً كالسابق، أن أعود ثانيةً إلى الضياع دون دعم، مترنِّحاً، مُهتَزّاً جيئةً وذهاباً من كل الأطراف... لا أريد تركك... نحوك أتلمَّس طريقي... ها أنا ذا، أظنّ بأني أصل إليك، أمسكتُ شيئاً، أنت هناك، أنا ألمسك... والنار والسماء اللازورديّة تنزع (لماذا تنزع، لكنْ لا، لا أهمية لذلك، هذا لا شيء، تنزع – إنه جيد جداً)، والنار والسماء اللازورديّة تنزع عني ليلتي.

مُخَصِّصاً مكاناً واضحاً داخله، يترك ذلك يتغلغل: أحجار صوّان تختفي. سماء لازورديّة. دِنان. نار وسماء. يكفي أن يترك المرء نفسه على سجيّتها، ألا يقاوِم، ألا يتشنّج، لن يشكِّل ذلك شيئاً مهماً... كما يقال لك حين يجري تنظير معدتك بإدخال أنبوب سميك من الكاوتشوك ذي الرائحة المقزِّزة داخل حلقك... هذا سوف يمرّ كما تمرّ الرسالة في البريد، سوف ترى، إنها تمرّ... هاك... ليلة. سماء لازورديّة. دِنان و سماء...

فجأة، جاءه إحساس بالسكينة... إحساس شبه لذيذ، معتاد، حميميّ مثل ذلك الإحساس الذي تعطينا إيّاه الأغذية التي كان المرء يتشرّبها في طفولته، مثل الطعم الصافي والحنون للعصيدة، لشطائر الزبدة، للحليب... سماء لازورديّة.

---

(١) اسم الشاعر فارانجيه من نسج خيال الكاتبة وكذلك شِعره الوارد هنا. (م).

سماء لازورديّة ونار السماء، ليلة منزوعة، دِنان، مصادر مختومة... لمَ الامتناع، لمَ لا يترك المرء نفسه على سجيّتها، لمَ لا ينفتح على ذلك... نعم، هذا جميل. هذا جميل جداً... والنار والسماء اللازورديّة... لكنّ ذلك يغوص داخله بشكل ثقيل، رخو كله، مقزِّز... عنده رغبة في طرده، يتقلّص، ينثني... «لا، كما تعلم، ليس من الممكن عمل أي شيء. إنه ميت، هذا مصنوع دون مشاعر، مادة ساكنة، مزيَّنة حسب الطراز السائد، مع الجهاز القديم دوماً، الأداة الشِعريّة الثابتة... هذه الكلمات الإجباريّة، الحفاظ على ضبط الشِعر... لا يمكن فعل شيء، لا أستطيع احتمال هذا، لن أتبعك بعد الآن».

في مواجهة صرخات اليأس تلك، يلتفت إليه الآخر بنظرته المتفاجئة، المشفِقة قليلاً، الآخر ذو معدة النعامة، الآخر ذو الابتسامة الغبيّة، الآخر فاقد الحِسّ والسوقيّ... الآخر، عبد بائس كان قد تقرّب إليه، كان قد رفعه على عرشٍ، وانحنى أمامه، شعر بالإطراء وهو يمسك بيده الممدودة، ملك سيرك متوَّج بالورق المقوّى، نبي مزيَّف... كان ذلك، هو المخلِّص، الرفيق الجسور. وهو نفسه يملؤه الفخر لأنه يشبهه غاية الشبه، لأنه يلتحق به عن قرب شديد... متهكِّمَيْن، منتَفِخَيْن تماماً، من أولئك الذين يُعجَبون بِـ الانحناءة، بِـ ثمار الذهب، ضاحِكَيْن، كلاهما... ضحكات منفرجة لبهائم، ثرثرة سكارى... تربيت كبير على الكتف، ينثني أحدهما على الآخر، مترنِّحَيْن، متشابكَيْن... هوه، هوه... يقولون إنَّ ذلك مصنوع عمداً... هوه، هوه، كم هذا مضحك... قل لي، أنت الدكتور العظيم، ما رأيك في ذلك؟ أهو مصنوع عمداً؟ حسناً، انتظر... الإصبع الرخوة ترسم منحنى في الهواء، يتوضّع على الأنف... تقول إنه مصنوع عمداً، يا صاحِ؟ لكنّ هذا لا يصمد... سأشرح لك... صوت غير واضح...

فُواق... وهو نفسه، بوجهه المغتبط، بفمه شبه المفتوح، بعينه اللامعة وبضحكة الغبيّ الراضية خاصَّته.

* * *

ها هو ذا وقد جرى اصطياده. وقع في الفخ. من المستحيل الهرب. وبسبب خطئه هو، كما هي الحال دوماً. إنها النتيجة الحلوة لما يسمّيه، للاطمئنان، برقّته العظيمة، بكَرَمه: هذا الضعف الذي يجعله، كما حدث قبل قليل – وهذا لم ينقصْه - عاجزاً عن مقاومة أدنى مجاملة، وهي تجعله يحمرّ، يتلعثم، يتقلّص، يتجلّى... «لكنْ لا، أنت تبالغ... كتبتُ هذه الدراسة في غاية السرعة، على مدى ما تجود به ريشتي، كان عليَّ أن آخذ وقتاً أطول... لكنك تقول لي إن برولیه، حقاً، ذلك يفاجئني كثيراً منه...» أكثر، بالضبط أكثر قليلاً، يتطاول، هذا غاية في اللذة... هناك، هناك... هذه المداعبة، هذا التربيت... «لكنْ بالتأكيد، لا بُدّ أن أذنيك قد طنَّتا لكثرة حديثنا عنك في غيابك. لو كنتَ قد سمعتَ كيفية حديث برولیه عن ذلك. فضلاً عن أنه هو، برولیه، الذي لفت نظري إلى ذلك، لأنه بالنسبة لي، كما تعلم، ثمار الذهب، بالنسبة لي، ثمة شيء ما... لكنّ برولیه قال لي: اقرأ إذاً مقال بارّو. إنه ذو قيمة عظيمة. سوف تتجه إليك الأنظار». لديه رغبة في طلب الاسترحام... هذا فوق طاقة التحمّل... يطلق أنّات صغيرة خائفة... «حقاً؟ وأنا الذي كنتُ قد رغبتُ في إعادة صياغته... لم أكن مسروراً منه... – لا، إنه حقاً جميل جداً. أفضل ما كتبتَه. إنه لَمِنَ الأهمية... لَمِنَ البريق... لكن ثمة عتب، مع ذلك، لو سمحتُ به لنفسي... – لكنْ بالتأكيد، طبعاً... مغتبطاً، بعد كل هذه المداعبة، يطلق لنفسه العنان، يتجلّى أيضاً، لهذه الرِّقّة،

لهذه العضّات اللطيفة التي لا تكاد توجع... – هذا التحفّظ الوحيد مع ذلك، لكنك ألن تنجرح؟

- أنجرح؟ لكنْ على العكس... قلْ، لا تنزعج. هذا أكثر نفعاً من المجاملات... إنه لَمِنَ النادر جداً قول الصدق لك...

- حسناً، ما يمكن لي أن آخذه، أنا، على هذه الدراسة الرائعة في كل نقاطها، هي ما كان ينقصها من الاستشهاد بالاقتباسات...

- حقاً، نعم، هذا صحيح، نعم، ربما لك الحق في ذلك... كان عليَّ...

- لأنّ هذا، كما ترى، كان يمكن له أن يبيّن لي بالضبط... لأنه، أحياناً، وفي قراءتنا لك... هذا حسن جداً... يمكن للمرء أن يقول لنفسه... تساءلتُ من حين لآخر فيما لو كنتَ لا توافقهم بكرم، على ثمار الذهب تلك، مع ذلك... ألا يرضيكَ... لو كنتَ تريد... قطعتُ وعداً على نفسي، حين أراك... هاك، هو في حوزتي هنا... مقطع واحد فقط... كي أعي الأمر... بعض الأسطر التي اخترتَها أنتَ، كي تبيِّن لي...»

حتى في هذا الأوان، لا يزال الوقت متاحاً. متراجعاً إلى الوراء بانتفاضة قوية من خصره، مستنداً بقوة إلى مسند كرسيه، وعلى شفته السفلى السميكة المستهزئة ابتسامة راضية، وبظاهر يده، لا يزال يستطيع دفعَ الكتاب الذي يؤتى به إليه، بيد ممدودة، وغَرْسَ نظرته بوحشية في عيني الوقِح: لكنْ، يا صديقي العزيز، ألا تفكِّر في ذلك؟ أنت تمزح... ماذا تريد؟ أنْ آتي لك بالبراهين؟ أن أعرض أمامك مستندات الإقناع خاصّتي؟ أتريد مني أن أتقدّم للامتحان؟ أنْ أقنعك بأني لم أخدعك، وبأنّ لديّ ذوقاً جيداً؟ قد يستطيع التنازل عن قضبان القفص الذي استسلم ليكون سجيناً فيه، قد

يستطيع جعله يتطاير شظايا، الخروج والنظر إليهم وهم يتراجعون، يتباعدون بجبن، يتركون اللاوعي المسكين لمصيره.

لكنْ هو، أبداً. هو ليس واحداً من هذه البهائم، ليس واحداً من هذه الحيوانات التي تحرّكها غريزة غامضة، التي لا تستسلم أبداً لاصطيادها، التي، بل ولأقلّ إحساس بالخطر، لضجيج مستمر، لأخفّ حفيف تسمعه، بكل عضلاتها المشدودة، وعيونها التي تصبح متوحشة فجأة وهي متحفّزة، وأنيابها بارزة إلى الأمام، تؤدّي إحدى قفزاتها الرهيبة. لا، هو ليس كذلك.

من أجل أن يسمح لنفسه بدفع هذا الرجل إلى الوراء، شبيهه، الذي يرجوه بثقة بالغة، بنقاء غاية في التأثير، هذا الرجل الشجاع المتعطّش للتعلُّم، المليء بالعزيمة، بالإعجاب، من أجل أن يسمح لنفسه بانتهاج وقاحة كبيرة تجاهه، كم من التحاليل الدقيقة، من معاينات الخبراء ومعاينات لرقابة المعاينات السابقة، من التفكير العميق، الذي قد يودي به إلى اليقين المُحتاج إليه بشكل فائق، الذي قد يجعله يكسب التأكيد على أنه موجود في حضور مخادِعٍ ما، كم من ذلك لا يلزمه هو. وفضلاً عن ذلك، أليس من الأفضل، كي يكون الضمير مرتاحاً تماماً، كي لا تتمّ المخاطرة، مهما كانت صغيرة، رفض ذلك لشخص أصيل في الضحالة الثقافية، وحتى إعطاؤه لمخادِعٍ ما؟ لكنْ، في الوضع الحالي، لا شيء يسمح بالتفكير بأنّ الرجل ذا الوجه المنفتح والرؤوف الذي يمدّ يده إليه بالكتاب، ببساطة، هو يُوقعه الآن في الفخ. يا لها من فكرة! ماذا يوجد هناك من شبهة؟ كل شيء طبيعي. ضمن القواعد تماماً. حين يؤكَّد شيء ما، يجب إيجاد المقدرة على جلب براهين الإثبات. لقرّائنا، وهذا مؤكَّد، بعض الحقوق علينا. هذا ما يفرضه النُبْل.

يأخذ الكتاب، يفتحه... «تعرفون أنكم تزعجونني... لكنْ حسناً، إنْ أردتم... كل شيء جميل في ثمار الذهب... أيّ شيء كان...»

لكنْ ماذا يجري؟ أين هذا الانتعاش الحنون، هذا الزغب؟... هذه المِنّة المتراخية كأنها شاردة؟... هذا الخط... هذا الارتعاش؟... ما يُرسَم تحت نظره مشوَّه، نحيل، شكله دقيق، هزيل... ثابت في وضعيات مُدَّعية، مصطنعة... يقلب الصفحة... لا، ليس ذاك، الحال ليس على ما يرام... هناك، ربما... لكنْ هناك أيضاً... لكنْ ما الذي يحدث له؟

لكنّ هذا يأتي منهم في الأصل، من هذا الذي استفزّه وهو يراقبه الآن، الذي يلوذ بالصمت... ثمة شيء ما في حضوره الصامت، في صمتهم جميعاً، وهم جالسون على شكل دائرة من حوله، في انتظارهم المثقَل بالحذر، الذي، كأنه تحت تأثير الشفط، يسحب من هذه الكلمات التي يقرؤها نسغها، يضخ دمها، فتفرغ... وتصبح أشياء صغيرة مجفَّفة...

يقلب صفحة أخرى... كلّ الكلمات الآن كأنها أضحتْ قاسية، مطليّة، لّماعة زيادة عن اللازم... من هذا الصمت، من هذه النظرات، كأنّ تياراً يخرج، مادةً تسيل، تنتشر... كأنّ تحت تأثير الطلاء المعدني الكهربائي، كل شيء يُغَطّى بطبقة من معدنٍ ذي لمعة اصطناعية.

يجب كسر السحر، إبعاد العين السيئة الحاسدة، يجب الإمساك بأيّ شيء ورميه إليهم، دون تردُّد بعد الآن... «هنا، مثلاً... هذا المقطع هنا، أنا أجده رائعاً. بداية الفصل هذه، حين ينظر أوليفييه من النافذة قبل مغادرة البيت...»

بكلّ قواه المُستَجمَعة، يحاول تفادي هذه الموجات الشريرة التي يطلقونها... وها هي ذي في هذه الكلمات، في هذه الجُمَل تظهر كأنها واحدة

لا تكاد تُدرَك بمبالغة كبيرة... يرفّ ذلك بهدوء... يتّخذ قراره، ينقّي صوته... لكنّ الكلمات، حالما يلفظها، وهي شبيهة بفقاعات تُرسَل في هواء ثقيل زيادة عن اللازم، تضعف، تنكمش، فلا يبقى شيئ تقريباً، لم يكن ثمة من شيء... «لا، ليس هذا... هذا ليس جيداً جداً...» يقلب الصفحات، يتصفّح... لم يعدْ ثمة من ثانية واحدة لإضاعتها... ينتظرون، يراقبونه... «لا أعرف لماذا أتردّد... هذا المقطع هناك باهر... إنه رائع». هيا، يجب إظهار قليل من الجسارة. هل نسوا مَنْ هو؟ ألم يحتفظ إذاً بشيء من حظوته، من مقدرته؟

لا. لقد فَقَدَ كل شيء. هو وحيد، معوز. لقد جُذِبَ خارج حماية هذا الحَرَم المُحَصَّن حيث كان موجوداً، هذه الساحة القويّة التي كانت تشكّلها حوله أعمالُه، كتبُه، مقالاتُه، أسلوبُه القاسي، السامي، المغلق، المنيع، جُمَلُه المُنقَّشة مثل مدافع البرونز ذات الإطلاق الدقيق والقادر، التي كانت تحافظ على احترام المهاجمين.

قبِلَ الخروج. لقد أعاد رفع التحدّي وتقدّم وحيداً ضمن مضمار مكشوف. لكنه لم يعدْ يخاف، هذا ما يفرضه النُبْل. يرتفع صوته واضحاً، ثابتاً... دون أي ارتعاش... يقرأ ببطء، لافظاً كل كلمة بوضوح، كما لو أنه يلقّمها كي يجعلها أكثر كثافةً، أكثر ثِقَلاً، قاذفاً بها بكلّ قواه على دائرتهم الجامدة التي تنصت إليه بصمت.

لكنّ الكلمات المتلألئة والخفيفة ترفرف للحظة ثم تقع من جديد حوله، تتناثر... ينخفض صوته، تصيبه البُحّة، يسرع، يريد الهرب، فيما تضيق دائرتهم حوله، كلّ العيون مثبّتة عليه: ها هو إذاً ما يمنحه لنا، ها هي ذي الكنوز التي مدحها أمامنا هذا العارف بها. هذه الأشياء الفقيرة...

غارزين المكبِّر في محجر العين، ينحنون، يعاودون الانتصاب وينظرون إليه... يسمع سعالاً خفيفاً منزعجاً... «إنه جميل جداً».

«إنه جميل جداً». في اللحظة المطلوبة، دون تأخير لثانية واحدة، دون صعوبة، انطلقت الآليّة، تتهاوى الآلة الثقيلة عليه، عليهم، ساحقةً كلّ شيء.

«إنه جميل جداً...» مثل التصرّف الأخرق، بنيّة الخدمة، الذي يؤدي إلى كارثة. يرقد مسحوقاً، دامياً، والجميع يشيح بنظره عنه.

عيون فارغة من أيّ تعبير تدور بخفّة في محاجرها: ينتظر الشخص المسكين إعطاءه شيئاً ما... كلّ واحد يتردّد، مرتبكاً قليلاً، كلّ واحد ينقّب، لكنْ هي... ها هو ذا، عندي ما يلزم، هاكَ، يا أيها الشجاع، خذ: «إنه جميل جداً».

تجول نظرة لا تُقاوَم على الحضور: هل يُنسى بأنّ كلّ إنسان وُلِدَ من أصل طيب، بحضور ملك نُزِعَ من على عرشه يستمرّ في احترام القواعد التي يفرضها الإتيكيت؟ انظروا، سأعطيكم المثال: أمام صاحب السمو المخلوع هذا، بتقدير حزين، بإشفاق حنون، بحنين، كما في السابق أنحني: «إنه جميل جداً».

كلهم متآمرون، يتفاهمون دون كلام مطلقاً، هم متراصّون جيداً في الدفء، الواحد إلى جانب الآخر، وهو يقف وحيداً منزوياً، هو، إنه مصنوع من مادة مختلفة، هو، محروم من الضمير، غير واعٍ لشيء، عاجز، كي تكونوا مطمئنّين، عن إدراك الخديعة، الاستهزاء. معه، لا احتياط ليؤخَذ، أيّ بضاعة سيئة سوف تؤدّي المهمة، سوف يكتفي بأيّ شيء من العرّاف الجيد:

بضغط مبالغ فيه، بتكرار حرف الياء[1] بشكل قوي لتسجيل الاقتناع، كل الكلمات منفوخة بحماس مزيَّف: «إنه جمييل جداً».

«إنه جمييل جداً». في الصمت تنفجر الكلمات. إنه مليء بالتلألؤ. يتلمّس طريقه كيفما اتفق وينتزع ما ينغرس داخله ويمزّقه: ازدراءهم، شفقتهم، هذا التآمر المكتوم بينهم، هذه القناعة لديهم بعدم وعيه، بسذاجته... هو ينتزع كلّ ذلك، ينتصب: رجل واضح الرؤية وفخور، نظرته تجعلهم يشيحون بعيونهم عنه: «لا، أظنّ أنكم تبالغون. هذا المقطع هو على الأكثر جاء في موقعه المناسب بشكل لا بأس به. لا يمكن أبداً لقراءة، هكذا، كيفما اتفق تقريباً، أن تعطي شيئاً مهماً... وبعد كلّ هذا، ربما أنا أخطأتُ...»

* * *

«أودّ أن يشرح لي أحدكم، أحبّ كثيراً أن تقولوا لي... إنه حقاً خارق... قد يستحقّ ذلك أن يُفحَص حقاً عن قرب، أن يُدرَس...» خارقاً كلّ الاتفاقيات الضمنيّة، كلّ المعاهدات السرّية، مخالِفاً القواعد التي يفرضها احترام الآخرين، التي يُمليها الخَفَر، مقاوِماً الممنوعات كلّها، يندفع، غير مهتمّ بالعوائق، بالأفخاخ المنصوبة على دربه... بذاك الشخص، هناك، أمامه، لكنه يراه بوضوح، يعرفه... «أعرف أنني مضحِك. من المضحك ممارسة لعبة كراهية البشر والصراحة الجارحة معهم، لكني لا أبالي أبداً بذلك، فليكنْ...» ها هي ذي، بقفزة واحدة، وهو يبتسم، تجاوزه، وينقضّ... «حتماً يجب أن تشرح لي، بلا شك أنا غبي، ثمة شيء ما لا أفهمه... كيف يحصل ذلك، تلك الأمور، بأي آليّة غامضة؟... كثيرة

---

(١) في النص الأصلي، ثمة تكرار لحرف «r في « très = جداً». وجدتُ أن من الأفضل تكرار الياء في «جميل» لتأكيد المعنى. (م).

جداً هي الأشياء الأقل أهميةً التي أضحت، منذ زمن بعيد، معروفة، منتهية... قد تستحق الاهتمام بها... الفن... يشعر بأنه ينزلق قليلاً والآخر، متسلّياً، ينظر إليه وهو يترنّح، وهو يتمدّد... لكنه ينتصب فوراً: لا، ليس الفن بـ «ال» التعريف... دعونا لا نقُل الفن، إنها كلمة كبيرة جداً... لنقل الأدب، هذا أكثر تحديداً... له أهميته مع ذلك، هو شيء مهمّ بالنسبة لعدد كبير من الناس... حسناً، كيف يتصادف ويحدث في كل لحظة أن يشهد المرء هذه التحوّلات الخارقة دون أن تبدو الدهشة من ذلك على أحد، دون أن يهتمّ أحد بذلك... كأنها هلوسات جماعيّة، هذا الوَلَع العظيم دون معرفة السبب الحقيقي فعلاً... ومن الأعلى إلى الأدنى على السلّم الأدبي... النقّاد الأعظم، الكتّاب... جميعهم كرجل واحد... هاك، في هذه اللحظة... بالنسبة لكتاب ثمار الذهب... لا يزال ثمة قليل من الوقت، أتذكر ما كان يحدث؟ أذكر أنه في أحد الأيام، لم أكد أعترض، حتى إني لم أعترض – كيف يمكنني أن أجرؤ على ذلك؟ - لا بُدّ من أني كنتُ قد قمتُ، في غفلة مني، بحركة داخلية من تلك الحركات غير المُدرَكة... لكنّ الآخرين، بالرغم من قلّة عدد مَنْ كان متحفِّزاً منهم بالتنبُّه، أحسّوا بها، لا أعرف كيف... وفوراً أعادتني سيدة شجاعة إلى النظام، وهي واثقة جداً من نفسها، ومدعومة من الجميع: ألا تُحبّ ثمار الذهب؟ فصرختُ متعجِّباً. نظرت إليَّ بنظرة مهدِّدة: لأنك تعرف، إنْ كنتَ لا تحبّ ذلك، فهذا قد يدينك أنت، وليس ثمار الذهب، ذلك العمل الفنيّ الكبير...

الآخر الذي ينصت دون أن يقول شيئاً، الآخر الممسوك من الخلف، الذي لا يزال مشدوداً، لم يحاول المقاومة. دون حراك تماماً، كأنه دون حسّ، استسلم للخدوش، للقَرص، لأن يوسَع ضرباً، مصطنِعاً الموت.

«ومن ثم، يبدو لي، هاه؟ أنَّ في السنوات الأخيرة، ثمة تغيير يجري الآن. ثمة ما يشبه التحوّل المفاجئ... لا إلحاح على ذلك، ثمة انزلاق إلى موضوع آخر... في الجو ثمة ما يشبه التردُّد. لماذا، فجأةً؟ ما الذي جرى؟ لا تقل لي بأنه جرى الانتباه إلى شيء ما. قد يكون هذا جميلاً زيادة عن اللازم. مَنْ يعيد القراءة؟ مَنْ سينظر عن قرب؟ لكنّ ذلك هو كما لو جرى الاتفاق عليه مسبقاً. لأيّ سبب؟ كيف؟ أين؟ في حين لا يوجد أيّ معيار للقيمة. ولا واحد. أرأيتَ معرِض اللوحات الشهيرة للعام ١٩٠٠؟ هاه؟ يا لَلعبرة! هذا مريع... هو يهزّ البناء بأكمله، بكلّ قواه التي ينشرها الحنق، الغضب، والفرح الوحشيّ بالتدمير. لينهَرْ كلّ شيء ويسحقهم جميعاً، لِيفْنَ، هو أيضاً معهم... يصل الأمر بالمرء إلى حدّ التساؤل إنْ كان حتى هؤلاء... تلفظ شفتاه المدنَّستان أسماء مقدّسة... إن كان حتى هؤلاء سوف يصمدون. إنْ لم يكن كلّ هذا من الخُزَعْبلات، هاه؟ ماذا يعرف المرء عن ذلك؟»

وها هو ذا الجمع الساكن، قبالته، يبدأ بالتحرّك، ينتفض: «لكنْ قل لي، ماذا يفيدك فعلاً كل هذا، في العمق؟»

يجرّه الهياج العظيم، فيدور حول نفسه متقدِّماً، وتزلّ قدمه. هو يقاوم مثل حشرة قلبتها هبّة الهواء وهي تضرب الهواء بأرجلها الصغيرة المضطربة، محاوِلةً التعلّق... «لكنْ... لكنْ كيف... كيف تقولون ماذا يفيدني هذا؟»

تؤخَذ، توضَع على إصبع ويجري تفحّصها عن قرب: «أنت مضحك. أنت لا تشيخ. لديك متطلّبات المراهقين وسخطهم. إعجابهم بالمطلق. تصرّ

على المعرفة دوماً. هل هذا جيد؟ هل هذا سيّئ؟ تلزمك قواعد لا تقاوَم، قد يكون من الإلزام تطبيقها. أنت تريد بكل القوة الممكنة أن يكون ثمة حقيقة يضطرّ المرء إلى الخضوع لها مهما كلّف الأمر. الإرهابيّ – هو أنت يا عزيزي... الفن، كما تقول، ليس العمل الفني مطلقاً هو قيمة أكيدة. هذا معروف جداً، هذا بدهيّ. يخطئ المرء كثيراً، هذا طبيعي. كيف يعرف المرء؟ مَنْ يستطيع القول إنه يعرف؟ حتى بالنسبة للقيم الأكثر ثباتاً، مثل الأعمال الفنيّة المهمة في الماضي، فجأةً تُرى تحوّلات، ويحدث وَلَع مفاجئ...

أَتَذْكُر ستاندال، لم يمضِ على ذلك زمن طويل... ومن ثم يهدأ ذلك. لماذا؟ تتغيّر الأذواق. ثمة احتياجات معيّنة في لحظات بعينها. وبعد ذلك يريد الناس شيئاً مختلفاً. كيف تريد منع الناس من اتّباع الموضة، هنا كما في كلّ شيء؟ مَنْ يخطئ؟ ماذا سوف يبقى من ذلك؟ لكنْ ماذا يعني سوف يبقى؟ سوف يبقى لَمَنْ؟ إلى متى؟ كيف يمكن التنبّؤ به؟ انظر إلى الفن الإغريقي الكلاسيكي الذي لطالما كان معبوداً... أيّ كسوف عانى منه... وربما في يوم ما، سوف يُرفَع إلى السُّحُب من جديد...»

أمواج مقلِقة تتضارب... يغوص المرء... إنه نحو تلك الأراضي الإسفنجيّة قد اندفع، إنها هي التي كان قد أراد توضيبها، والفأس والمشعل في يده... «ثمار الذهب، بما أنك تحدّثني عنها... يبدو عليك أنك لا تحبه... أنا، دعمته باستمرار. ربما أخطأتُ. بالتأكيد، ليس عملاً كاملاً، يمكن أن يجد المرء فيه نقاط ضعف، لكني أعتقد، بالنسبة لي، أنه كتاب ذو قيمة. حسناً، أنتَ نفسك، ربما، في سنوات قادمة، سوف تعيد النظر

فيه، وسوف تقول لنفسك إنك كنتَ تظهر بمظهر المتشدِّد زيادة عن اللازم...»

على مدى النظر، لا يلحظ المرء إلا امتدادات موحلة رمادية. تبرز منها أشكال ساكنة، تدور برخاوة حسب أهواء هياجٍ غير مرئيّ... «على أيّ حال، في لحظة معيّنة، جيدة أو سيئة، سيكون قد عنى شيئاً لكثير من الناس... ومن أفضل الناس... خطأً؟ صواباً؟ ماذا نعلم عن ذلك؟... هل سوف يدوم؟ كيف السبيل لمعرفة ذلك؟... ولنكنْ صادقين في ما بيننا، ما أهمية ذلك؟»

* * *

نعم، كانت لحظات طيبة. آه، لم تكن لتريد تفويت ذلك على نفسها مقابل أي شيء مهم آخر في هذا العالم... وقد فوّتوا ذلك عليهم. يا لَلخسارة، هي تتحسّر من أجلهم. حقاً، كان ذلك مثيراً للشغف... يعيش المرء وسط الرعب. لم يكن أحد يستطيع الاحتجاج. هؤلاء الذين كانوا يسمحون لأنفسهم بأقلّ تحفّظ، يُنظَر إليهم فوراً بازدراء من العُلا، موسومين بعدم الإحساس – هم بهائم، متخلّفون عقلياً. هذا هو الموقف بالضبط، في حال كان يجرؤ المرء على الهمس لنفسه، في الحميمية الأكثر دقّة، في أعلى مستوى من السرّية... ولم يكن جاك وهي ليحرما نفسيهما من هذا، يمكن تصديق ذلك. أحياناً وهما عائدان، في وقت متأخر من الليل، إلى بيتهما وهما لا يزالان مذهولين تماماً، كانا يتناقشان، حانقَيْن... إذ يجب القول دون تبجُّح، إنّ جاك، هو، منذ البداية لم يقبل قط بالمشاركة في ذلك. جاك لم يكن مطلقاً عرضةً للخداع في ذلك. هو لا

يستسلم أبداً لكي يُستَغَلَّ في هذه الأشياء. كان يمكن للعالم بأسره أن يجتمع، للمفكّرين الأعظم، للنقّاد الأكثر شهرةً، غير أنه هو، جاك، هم لن يجعلوه يغيّر من رأيه قيد أنملة.

لن تقنط أبداً من الإعجاب به... إنهم أناس مثله، غاية في النقاء، غاية في النزاهة، غاية في القوّة، بفضله استطاعوا باستمرار إظهار القيم الحقيقية بوضوح. هم الصخور التي تتكسّر عليها أمواج الامتثاليّة، الرخاوة الخانعة، الهيستيريا... كلّما ازداد عددهم، وكلّما مرّ الزمن، فبقوة قناعتهم التي لا تُقهَر، تفنى الأعمال أو تبقى حيّة. بفضلهم، يستمرّ الفن في مسيرته. ومع ذلك، ما الذي يفعلونه ويكون خارقاً للعادة؟ غالباً ما يقول جاك ذلك، وهو المتواضع، المنفصل عن الواقع كما هي حاله... يكفي الاستسلام من دون بذل الجهد، يكفي الخضوع لإحساسه، التعلّق بذلك، عدم جعل أي شيء يقف عائقاً، التواصل المباشر دوماً، الحميم، مع الهدف... أثمة أمر أكثر بساطة من ذلك؟ لو كانوا هكذا، مستقلّين، عفويين، منتبهين مثله، لما كان قد فاتهم ذلك، لكانوا هم أيضاً قد عرفوا مثل تلك اللحظات. لكنها لا تنقم عليهم، الآن وقد انتهى الكفاح، وقد همد الشغف، الآن وقد أمكن المرء الخروج أخيراً من العمل السرّي ونشر ظروف المعركة في وضح النهار، وسرد وقائع مهمة جداً بعينها... على العكس، هي تريد من قلبها أن تجعلهم يتشاركون.

– من بعيد، بالتأكيد، فقد فات الأوان - في ما عاشوه، هم، أولئك المقاومون الأوائل...

كان ثمة أيام، عليها الاعتراف بذلك، هي نفسها تخاذلتْ فيها. كانت لديها شكوك. تتذكّر أنّ ميتّوتال كان قد تكلّم عن ذلك، في إحدى الأمسيات، فصرّح، على ذمّة ميتّوتال، بأنه لو كان ثمة من كتاب في هذا الزمن قد استطاع البقاء، فسيكون هو ذلك الكتاب حتماً، ولدى عودتها إلى بيتها، فتحت كتاب ثمار الذهب، مرّةً جديدة، وهي تعترف، خجِلَةً من نفسها أيّما خجل، بأنها قد وجدت ذلك جيداً جداً. لكنّ جاك قد سخِر منها: «هاكِ، سترين، كان قد قال له ذلك، هاكِ، سأريكِ كيفية صنعه... إنه مُسَلٍّ جداً...» نعم، هي تريد فعلاً التشارك معهم، هي تتفهّم تحسّرهم، حنينهم... من الجيد إعطاؤهم، حتى لو بعد فوات الأوان، هذه الفرصة للتشارك، هذا الحظ لنسيان أخطائهم. من الجيد أن يُجبَرَ هؤلاء الذين لا يزالون يتمرّدون، شاؤوا ذلك أم أبوا، على الظهور على الأقل كأنهم يتجمّعون... إذ إنّ الأزمنة قد تغيّرتْ. ليس لسببٍ في هذا العالم،حقاً، سوى لأنه منذ سنة فقط لم يكن بالإمكان سرد كل ذلك... نعم، قال لي جاك: سأعطيكِ برهاناً على ما يساويه هذا... غاب في مكتبه لعشر دقائق وحين عاد... لكنْ يا جاك، ما بكَ؟ ألا تريدني أن أحكي لهم؟

لكنه بالتأكيد لا يريد... بالطبع، ليس لديه أدنى رغبة في إدهاشهم، في إغوائهم، فهو لا يتمسّك مطلقاً بإقناعهم... من أجل ماذا؟ بماذا يهمنا تفكيرهم؟ هم لا يفقهون شيئاً في أيّ شيء. يقوم بحركة خفيفة، يبدأ بإيماءة من يده لإيقافها...

لكنْ ما الفائدة؟ كيف يمكن احتواؤها حين تندفع هكذا بجسارة لفرض العدالة، لتفجير الحقيقة؟ كما لو أنّ الحقيقة والعدالة في حاجة إليها من أجل الدفاع عنهما... كما لو أنه عاجلاً أو آجلاً، شئنا ذلك أم أبينا... لكنها تريد فعلاً تسريع الحركة، سباق القَدَر.

تتحلّى بهذا الصفاء في التخيّل أنه يكفي الصراخ عالياً، التأكيد الحتميّ... كأنّ الناس في نظرها ليسوا مطلقاً غير ما يظهرون عليه. خلف وجوههم الجامدة هي لا ترى شيئاً. لا شيء غير مادة مطواعة تستطيع طباعة شكلٍ ما عليها كما يحلو لها، معتقدةً بنجاحها حين تُبيِّن لها ابتساماتهم، نظراتهم، ما تريده رؤيته. الآن هي لا تدرك شيئاً فيهم سوى مظهر الفضول المُحَبَّب، الانتظار المتعاطف. وتنقضّ، ساحقةً الحساسيّة، ماشيةً على أذيال الثعابين... أمام تهديد الابتزاز الذي يمكنه إجبارهم على الغَرْف من احتياطياتهم الثمينة من التعاطف، من الإعجاب – وهم يكرهون ليّ ذراعهم – هي لا ترى كيف أنهم يحتفظون فوراً بالمسافة، كيف أنهم يعبئون تحدّيهم، سخريتهم، فكرهم النقديّ الذي يؤدي إلى الخطأ في الغالب الأعمّ... في هذه اللحظة بالذات التي يبدو فيها واضحاً أن التقزّز الذي يُظهره للعرض وإصراره عليها يجعلانهما يبدوان في نظرهم كواحد من أولئك الأزواج المدرَّبين، من أصحاب الرؤية، أولئك، والكومبارس التابعين لهم، من لود ولوديلا اللذين يتبادلان الأسئلة والإجابات بدءاً من القاعة وانتهاء بخشبة المسرح أمام جمهور مذهول من الإعجاب وحَذِر[1].

---

(١) يجري التنويه هنا بعرض موسيقيّ قُدِّم في الثلاثينيات من القرن العشرين، يظهر فيه زوج من الشخصيات المسرحية يتبادل الأسئلة والإجابات. **(م)**.

لكنْ ليروا ما يريدون وليفكّروا بما يشاؤون. في جميع الأحوال فات الأوان. لقد أعلن عدم مسؤوليته عن ذلك، لتحكي هي ما يحلو لها... – لا، لماذا... أعتقد فقط أنّ هذا... – لكنْ نعم، جاك... لا، اسمع... إنه حقاً أخّاذ... يعود جاك بعد انقضاء عشر دقائق... لكنْ عشر دقائق، ليس أكثر. وماذا يُريني؟ إنها صفحة لِـ بريهييه من الممكن أن تكون موجودة بالضبط في كتاب ثمار الذهب. ففيه كل شيء. من السحر الشهير... إلى الجاذبية... والإيقاع، والنبرة، والصور، والأحاسيس... لكني أقسم لكم بذلك، إنه كان من الممكن الانخداع بها. لكنّ هذا، ليس شيئاً ذا أهمية... انتظروا. هم ينتظرون. أيّ مهارة سيجري إظهارها لهم أيضاً؟ بأيّ طريقة عرض يُراد لهم أن يُدهَشوا أيضاً؟... سترون. إنه الأجمل... في إحدى الأمسيات التي أتى فيها إلى البيت واحد من العشاق الأكثر حماساً لكتاب ثمار الذهب... أفضّل عدم تسميته، لكنه خبير كبير، فقد درس هذا عن قرب كبير، وتحدّث عنه كثيراً جداً... خطرت لي فكرة إطلاعه على نص جاك – أعترف بأني كنتُ خائفة جداً – وهو نص مطبوع على الآلة طبعاً، فجاك لا يكتب أبداً بيده... قلتُ له – لا أعرف أيّ شيطان يدفعني في مثل هذه الحالات... أعترف بأنه لم يكن عليَّ فعل ذلك، كان هذا فظيعاً... لكني كنتُ أرغب في معرفة ذلك بأيّ طريقة – فقلتُ له: «ما رأيك فيه؟ إنه نص مرّره لي صديق لِـ بريهييه. لا بُدَّ أنه كان موجوداً ضمن ثمار الذهب. ومن ثم حذفه بريهييه، فقد وجد أنه لا يمتّ للموضوع بِصِلة، لا أعرف لماذا. لكن اقرأ هذا. ما رأيك فيه؟» حسناً، هل تعلمون كيف كانت ردّة فعله؟ هل تعلمون ماذا قال؟

ينظر إليها، عاجزاً، مشلولاً، فهو لا يستطيع فعل شيء لها، في حين يتأجّج على الفحم الحامي شيء ما في دواخلهم ويصل إلى حدّ الاحمرار... هو

يسمعها... ذلك ينفخ ويصفر بهدوء... ودون أن تعرف الخوف، تتقدّم: «وهل تعرفون ما الذي قاله؟» لا، هم لا يعرفون. «قال: هذا رائع. إنه أفضل ما فعله بريهييه... قال هذا. إنها عجيبة خالصة. إنه واحد من أجمل نصوصه. كان جاك يبدأ، عليّ أن أقول، كنتُ أرى جاك، أراه، يبدأ يشعر برضا الكاتب... أجل، أجل، جاك، لا تقلْ لا... كان هناك وهو ينتفخ غطرسةً... كان عليكم رؤيته. هذا لأنّ الصديق المُشار إليه كان يقدِّم مديحاً مستمراً. فهو يتوقّف عند كلّ جملة. فيكتشف فيها كنوزاً... نوايا... كان أقوى، أكثر نضجاً أيضاً من كلّ ما قرأه في ثمار الذهب. مدهش. عبقريّ. انظروا إلى هذه الصورة. رفرفة الجملة هذه... لو كنتم قد سمعتموها... كان أمراً خارقاً... انتهى بي الأمر إلى الشعور بالخوف. لم أتوقّع كل هذا، لم أرغب في المغالاة... لم أجرؤ على الاعتراف له... لكنّ ذلك كان مضحكاً إلى درجة كبيرة...» ها هو ذا. لقد انتهى العرض. ما رأيهم فيه؟ ليس سيئاً، هاه؟ هو عرض جميل...

لا أحد يتحرّك. ماذا ينتظرون إذاً؟ يبدو أنّ نظرها، الذي تحوّل إلى داخلها نفسه، يتأمّل مجدَّداً المشهد بأكمله، يراجع كلّ تفصيل للتأكّد من نوعيته، للاطمئنان... تهزّ رأسها... آه نا نا... آه، كان ذلك مضحكاً... تضحك... تتدفّق ضحكتها كالشلالات الخفيفة، كأنّ ذلك من أجل جرّهم... آه، آه، آه، كان ذلك مسلّياً جداً...

صوت أجشّ قليلاً، أخيراً ببطء، كأنه ينطلق بصعوبة... «نعم لا بُدّ أنه لم يكنْ سيئاً... ينجرّ الصوت بثقل... أتخيّل نفسي... لكني أعترف بأني لا أرى بشكل جيد جداً، بالنسبة لي، ما الذي يمكن إثباته من ذلك... ما الذي يثبته شيء كهذا؟»

- كيف... تحدّج مَنْ حولها بنظرات مضطربة ومذهولة... كيف، ما الذي يمكن إثباته من ذلك؟

- حسناً نعم، ما الذي يثبته ذلك؟ يمكن تقليد أجمل الأعمال... ينتشر الصوت بثقة... يمكن تقليد أعمال شكسبير بشكل جميل... لقد كتبت ابنتي للتوّ رسالة جميلة جداً لمدام دي سيفينييه[1].

تذرع المكان جيئةً وذهاباً، هي تغلي... «لكنْ جاك، أنتَ...» لكنْ ليفعلْ إذاً أيّ شيء... هو في غاية المهارة، في غاية القوة... عيناها مثبّتتان عليه، وجهها الطفولي كلّه يصرخ معهما بهذا إليه... «لكنْ أنتَ يا جاك، كنتَ تجد أيضاً...» لكنْ بالتأكيد، هو سيبذل هذا الجهد، بما أنها الآن ذهبتْ لتضع نفسها في هذه الحالة السيئة، بالتأكيد، لن يتركها - يا له من شارد الذهن، مسكين... ألم يكن قد توقّع ذلك؟ - «لا هنا، حقاً، أنا لم أعدْ أتابع ما تقوله... أجد أن لزوجتي الحق في هذا...»

- آه أتجد ذلك حقاً؟ حسناً، أحبّ أن تشرح لي هذا...

ها هو ذا... لكنْ لتتوقفْ هي هكذا عن حالة فَقْد الصبر إذاً، لتتوقفْ عن الاضطراب، فهي تمنعه من تجميع أفكاره... ها هو ذا، سيجد، على الفور... في الانتظار، يجب اتّخاذ كل الإجراءات اللازمة للمواجهة، لالتقاط ما هو جاهز لديه دوماً، على مدى ما تطوله يده، ما يحتفظ به دوماً احتياطاً

---

(١) مدام دي سيفينييه، هي ماري دي رابيتان- شانتال والمعروفة أيضاً باسم الماركيزة دي سيفينييه (١٦٢٦–١٦٩٦). هي أديبة فرنسية من القرن السابع عشر. اشتُهِرَتْ برسائلها لابنتها الكونتيسة فرانسواز –مارغريت دي سيفينييه. (م).

لمثل تلك اللحظات، وقذفه بهم كي يترك لنفسه فسحة من الوقت لتغيير موضعه، كي يبقيهم بعيدين عنه... كما تلك العيدان من الكبريت التي يحكّها رجل بسرعة، فيشعلها وهو محاصَر وسط مجموعة من الذئاب في عزّ الليل ويرميها بها كي يجعلها تتراجع: «أوه أرجوك، لا تجبرني على تحقيق انتصار سهل...»

هم يبدون مربكين قليلاً، بما أنهم كانوا يتوقّعون ذلك، كأنهم يتخبّطون في الفوضى قليلاً. ومن ثم، بما أنه يتوقّع ذلك أيضاً – لكنّ المهمّ كان في كسب بعض الوقت – الشعلات قصيرة الزمن تلك التي تنطفئ من فورها، لا تخدع أبداً الناس الأكثر جسارةً، الأكثر ذكاء، لزمن طويل جداً، بل هم يتقاربون، لامعي العيون، والآخرون يتبعونهم من بعيد: «تحقيق انتصار سهل، هو شيء حلو جداً... لكنْ مع ذلك، اشرحي لنا ذلك. نحن من دون شك نحتاج إلى تعليمنا أشياء بسيطة جداً...»

- حسناً ها هو ذا... لديه ما يلزم، هذه المرّة... ها هو ذا، إنه واضح: إنْ كان التقليد أفضل مما يتمّ تقليده – هذا هو المهمّ – إنْ كان ما نُقل عنه أقلّ جودةً... لو كان ممكناً...

- لكن صفحة واحدة، ما هي؟ سوف أكتب صفحة، وسوف تبدو كأنها مأخوذة من أدولف[1]، يمكنها أن تبدو أفضل من صفحة من رواية أدولف. وماذا بعد؟

---

(١) «أدولف»، عنوان رواية للأديب الفرنسي بنجامين كونستانت، نُشِرَت في العام ١٨١٦. (م).

لم تعد تستطيع السيطرة على نفسها، هي تريد التدخّل... «لكنْ لتكنْ أفضل، أفضل...» يرفع يده كما لو أنه يحاول إبعادها، لتتركهم الآن يتفاهم بعضهم مع بعض، هي لا تفعل شيئاً سوى إزعاجه... «آه لا، مثلاً... آه لا، هنا إنه أنا الذي لم يعدْ يتابعكم. صفحة واحدة – هذا يكفي. صفحة وحيدة حقاً ناجحة أكثر من صفحة لبنجامين كونستانت، لكنها حقاً أفضل، أكثر قوةً في كلّ نقاطها، هذا قد يكون كافياً. ما من مكان ممكن للشكّ، فالبرهان قد قُدِّم حقّاً. في هذه الحال، بنجامين كونستانت قد لا يساوي شيئاً مهماً...»

- لماذا؟ قد تكون عبقرية المقلِّد أكبر من تلك التي لكونستانت... تبدأ الابتسامات بالارتسام على العديد من الوجوه...

دون أن يلتفت إليها، يشعر بنظرتها الحنون، القلقة، المشفقة قليلاً جداً، مركَّزة عليه. لكنْ يضحك كثيراً مَنْ يضحك أخيراً. ستُمحى ابتساماتهم الوقحة... «لكنْ أتعرف عمّا تدافع عنه هنا؟ هاه؟ أتعرف ما معنى أن تكون نسخة أكثر نجاحاً من العمل الأصلي؟ أتعرف ماذا تمدح؟ لكنك تمدح بسذاجة بالغة الملاحظة ضيقة الأفق للتقاليد الأكاديمية».

- أوه يظن أنه يغتالنا... أوه كم تخيفك الكلمات إذاً...

- لا، الكلمات لا تخيفني. لكنْ، للكلمة معنى ما. والملاحظة ضيقة الأفق للتقاليد الأكاديمية هو التعبير المناسب. في أثناء الإصغاء إليكم، قد يكون من الممكن تماماً أن يتحلّى المقلِّد الناسخ بعبقرية أكبر... حسناً، بالضبط، لا. لأنها ميتة، كما تعرفون، النسخة، حتماً ميتة...

ليس ثمة من أحاسيس عفوية، جديدة، ليس ثمة من تواصل مباشر مع مادة سليمة، مجهولة... الملاحظة ضيقة الأفق للتقاليد الأكاديمية، إنها هي تماماً. أنتم تعرفونها تماماً.

- لكنْ لا أبداً، هذا يتوقّف على... كان كبار الفنانين ينسخون... ثمة رؤوس مثقلة بالمعرفة تنحني، وتُسمَع الهمسات... «لافونتين[1] وإيسوب[2]... شكسبير ومارلو[3]... وإذاً راسين[4] أيضاً...»

لكنّ إيماءة ممتلئة سلطةً تأتي لتوقف هذا الطيش... «هيا، هذا ليس جديّاً، أليس كذلك... له الحق في هذا. لا يمكن الحديث عن التقليد في ما يخصّهم. لقد تناولوا الموضوعات من جديد، لكن الموضوع، ما هي أهميته... هي حجّة فقط... لا، لن تهزم جاك في هذا المضمار. إنه يخطئ حول نقطة أخرى. حول هذه النقطة بالذات أريد العودة إلى الحديث عنها. إنه هنا الأمر المهم. صفحة واحدة، ما الذي تثبته في الرواية؟ العارف المتمكّن يمكنه أخذ الاحتياط في هذا الأمر.

---

(١) جان دي لافونتين (١٦٢١– ١٦٩٥). يعدُّ أشهر كاتب قصص خرافية في تاريخ الأدب الفرنسي. تأثّر بكتاب كليلة ودمنة. (م).

(٢) إيسوب هو كاتب إغريقي اشتُهر بكتابة الحكايات التي تنسب إليه المسماة «خرافات إيسوب» وكان من أدباء منتصف القرن السادس قبل الميلاد في اليونان القديمة. (م).

(٣) كريستوفر مارلو (توفي في العام ١٥٩٣). كاتب مسرحي إنكليزي وشاعر ومترجم من العصر الإليزابيثي. أشهر الكتّاب التراجيديين الإنكليز بعد وليم شكسبير. (م).

(٤) جان راسين (١٦٣٩– ١٦٩٩). شاعر وكاتب مسرحي فرنسي. كان جان راسين من الكتّاب المسرحيين الرئيسيين في الأدب الفرنسي. نشط إبان عصر الملك لويس الرابع عشر. وكان معاصراً لموليير. (م).

أكرّر ذلك: يمكن التسلية في هذه اللعبة مع أيّ واحد من الكتّاب. ما يهمنا في العمل، هو مجموع العمل ككلّ. إنه تناسُق كلّ أجزائه، بنائه... إنه تموضُع هذه الصفحة ضمن مجموع العمل، فضلاً عن الإضاءة التي تأتي منها... الانزلاق بدءاً بها... انفتاحها... أخيراً، لا حاجة بي للإلحاح. صفحة واحدة مقلَّدة، حتى بحِرَفيّة، هذا لا يثبت شيئاً. لا شيء البتّة».

- آه هنا أنا أحتجّ. لكلّ صفحة أهميّتها. لكلّ سطر أهميّته. كل جملة تُحيي، توجِد الإحساس، الشعور، حتى الفكرة، نعم، الفكرة. كل جملة هي الحركة الحيّة التي من خلالها يكون الإحساس الفريد... إنها ليست حركة مجانيّة... إذاً، إنْ كانت هذه الحركة المقلَّدة، إنْ كان هذا الشكل الساكن، الأكاديميّ، وأقول ذلك بوضوح، إنْ كان ذلك أفضل – إنه الأمر الأساسيّ، إنه هنا الأمر المهمّ – فإذاً، أسألكم، ماذا يمكن أن يساوي من قيمة، هذا الذي كانت تقلّده؟

يبدو عليهم مظهر التشاور في ما بينهم... نظراتهم يبحث بعضها عن بعض... ثمة محادثات بصوت منخفض... هم يحضّرون مخطّطاً جديداً... لكنْ أخيراً، حسب رأيه... لكنْ ماذا يقول؟ بالنسبة له، شكل واحد فقط ممكن، واحد فقط صالح... لكنْ انتباه... انتظروا... وجويس[1]، ماذا يفعل به؟ انتظروا، سنسأله... كما في لعبة الأمثال، واحد منهم، باسم الجميع، من بين النظرات، الابتسامات المتسلّية، فعل الإسكات، لا تقولوا شيئاً، دعوه

(١) جيمس جويس (١٨٨٢– ١٩٤١). كاتب وشاعر إيرلندي من الطليعة. اشتُهِرَ بكتابة القصة القصيرة. انتقل للعيش في فرنسا العام ١٩٠٢. (م).

يُجِب، واحد منهم، ممازِح جيد لكنه يبقى متماسكاً ولا يضحك، يأخذ ناصية الكلام: «وجويس، الذي أعاد توظيف المونولوج الداخلي لـ دوجاردان[1]؟... كيف تفسّر هذا؟ هاه؟»

آه، هو متأثِّر... انظروا إليه... انظروا كم هو متردِّد، هو يترنّح... كم يمرِّر يده على جبينه...

«لكنّ المونولوج الداخلي... لكن انتبهوا. يجب عدم الخلط. إنها تقنيّة أعاد جويس توظيفها. لم يقلِّد شكلاً ما...» بماذا يهذر، هم لا يلتقطون المعنى جيداً... «تقنية... طريقة تصرّف... شكل... هذا ليس الشيء نفسه... ثمة خلط هنا... انتظروا، لكنْ ها هو ذا... ليس ثمة حاجة إلى ذلك... ها هو ذا... المونولوج الداخلي... إنه ليس طريقة تصرّف... صوته يصدح بوضوح الآن: إنه جزء من الحياة النفسية التي أراد دوجاردان إظهار قيمتها...» ترتفع أصوات من كلّ الجهات: «هذا أفضل أيضاً. برافو. إذاً لقد ربحنا. ها هو ذا المكان الذي يأخذكم ذلك إليه. إنْ آمنتُ بما تقولون، فإنها المادة عينها، وإذاً هو الشكل الذي قلّده جويس. جويس – هذا ما وصلتم إليه من نتيجة – جويس صنع الملاحظة ضيقة الأفق للتقاليد الأكاديمية...»

- لا، لا، وكلا... يصرخ... بالضبط كلا، جويس ذهب إلى أبعد من ذلك. لا شيء مشتركاً بين مونولوجه الداخلي هو وبين ذلك الذي

---

(١) إدوار دوجاردان (١٨٦١– ١٩٤٩). روائي وشاعر فرنسي، رائد في تقنية المونولوج الداخلي، أو حديث الضمير. (م).

استخدمه دوجاردان. لقد أتى بهادته الخاصة. هو عالم له وحده... صنع ما هو أفضل...

- لكنْ يا جاك... لماذا الاستمرار في المناقشة؟... قلّة الصبر، الكبرياء جعلاه يكسر الحواجز كلّها... أنت قلتَها: جويس صنع ما هو أفضل، لكنْ وإذاً يا جاك، لكنْ أنتَ أيضاً!

- لكنْ بالتأكيد يا حبيبتي. أنا مقتنع تماماً. ها أنا ذا موقِن... مثل مصارع الثيران الذي يجول في حلبة المصارعة الرومانية، جارّاً رداءه الواسع بلا مبالاة، ملتقطاً في الهواء بأناقة مرهفة الأذنين والذيل، القبعات، الأحذية التي تُرمى عليه من المدرَّجات، فيُحيي الناس: «شكراً. أنا راضٍ تماماً. أمام كاتب ثمار الذهب، مُقارَنةً بـ بريهييه، أنا هو جويس».

* * *

«وهكذا، فإنّ ثمة كتباً كان يحاول كلّ واحد منها ملءَ الفراغ... كان الناس الأكثر حساسيةً، الأكثر ثقافةً يسكبون فيها كل كنوزهم، ويا لَكَرَمهم في ذلك... في نحولها يوجد لطف رهيف... في عتمتها تُكتَشف كثافتها التي لا يعلم مداها إلا الله... ومن ثم تصبح كأنها مُفرَّغة... كان ذلك ثقيلاً في الحَمل أكثر من اللازم... لقد عادت إلى حالتها الأولى، فوجدت نفسها قد اقتصرت على ذاتها... جوفاء... مرتبكة... ضعيفة... متناسقة... أشياء مسكينة... مَنْ لم يزل إلى اليوم معجباً بها، يتصنّع السذاجة، والاختلال... يوجد في كلّ زمان من تلك الكتب، كانت موجودة دوماً... لكنْ لا كي يُؤخَذ إلا الأحدث... كل تلك الكتب، هاكم، مثلاً...»

تدفعها عصا طويلة وقحة... كلها متماثلة، تحمل العلامة نفسها، فتتجمّع مطواعةً، تتزاحم قليلاً، تتلامس أسطحها المغبرّة، وثمار الذهب موجودة هناك، بينها.

ما كان يسبّب التنبّؤ ببعض الصمت، ببعض البرود، بتبادل بعض النظرات، الذي لا يكاد يُدرَك، بعض الابتسام، بعض التراجع المباشر، بعض الشائعات الخجلى، اليوم أضحى مطالَباً به في الساحات كلها، معلَناً عنه على كل الجدران. لم يعدْ من المفترض أن يجهله أحد: إنّ كل الذين، من قريب أو من بعيد، بشكل منفتح أو سرّي، حتى في عمق الأعماق المعتمة لضمائرهم، لا يزالون يختبرون شعوراً بالإعجاب بِـ ثمار الذهب أو حتى مجرّد جاذبٍ نحوها، قليلٍ من التعاطف، إنّ كل الذين لا يزالون إلى اليوم يرتادونها، يدافعون عنها، يختلقون لها الأعذار، يجدون لها ظروفاً مخفّفة، يجلبون لها بالكلام أو بالفكر دعماً ما، هم سفهاء.

نحن جميعاً هنا، أليس كذلك، من الفصيل نفسه، من اللون ذاته، من العِرق نفسه، من الطائفة نفسها ومن المستوى نفسه. ملتحمِين في كتلة واحدة. ليس ثمة ولا يمكن أن يكون هنا بيننا أيّ منبوذ. وأيضاً، بيقينٍ يشرّفنا جميعاً، وبتأكيد ثابت، ألا نجعل أحداً يحمرّ خجلاً، وبثقة أخويّة أستطيع أن أنظر مباشرةً في عيونكم وأردّد بقوّة ما يعرفه كلّ واحد منكم فعلاً: إنّ الذين لا يزالون إلى اليوم، معجبين بِـ ثمار الذهب هم سفهاء...

لكني أنا، هذا يحرقني، هذا يزعجني... إنّ هذه الثقة الأخويّة والبريئة التي تنشر علينا أشعتها، المرتخية جداً، التي يتدفّأ عليها الجميع هنا بكسل ويتذهّبون اسمراراً، بالنسبة لي، هي توجِع قلبي، رأسي يديرني، ستعطيني تشميساً، يجب أن

أحمي نفسي، ها أنا ذا، سأنتصب وأضع بينها وبيني هذه الشاشة: لكني أنا، كما تعلمون، أنا عليّ أن أعترف لكم أنه بالنسبة لي، ثمار الذهب، أنا أحبّ هذا كثيراً.

ها أنا ذا. إذاً أنا سفيه. أنا سفيه: ليحدّقوا. بعد لحظة سأعرض أمامهم هذه الإشارة السرّية التي أحملها، هذه العلامة التي لا يمحوها الزمن التي حفروها هم أنفسهم، فالخَفَر، والخجل الخفيف سيجعلانهم يشيحون بنظرهم.

بالنسبة لي، ثمار الذهب، أنا أحبّ هذا... لا أستطيع احتواء هذا الحبّ، فالاندفاعة قوية زيادة عن اللازم، الحمم الحارقة ترتفع فعلاً لتصل إلى وجهي، بعد لحظة ستتدفّق، لترشّهم، لتغرقهم – هو نبع مياه ساخنة، متقطّع التدفُّق سوف يجعل بعضنا يتلوّى على بعضنا الآخر، فنفقد كرامتنا، وتنهدل خصل شعورنا الفوضوية على وجوهنا وهي تنقط ماء، وثيابنا المبَلَّلة بالماء تلتصق بجلودنا.

أحبّ ثمار الذهب، سأقول ذلك، وبعد مرور اللحظة الأولى من الاضطراب الفكري، سينهضون، سيصلحون فوضى هندامهم، سيرتّبون تسريحة شَعرهم كما يجب، سيربّتون على ثيابهم ويجعلونها تنهدل منتفخةً بحركات متقزِّزة قليلاً، فيعود كل شيء نظيفاً وواضحاً، وسيشكّل ذلك للجميع – حتى لي أنا – ارتياحاً: سيتجمّعون، وأنا، سأُطرد، سأُبعد، إبعادي جانباً، إلى مكاني، أنا الغريب، المنبوذ.

من بعيد سيراقبونني: رجل لمس غَرَضاً مكهرباً. يمرّ تيار من كتاب ثمار الذهب الذي لا تستطيع يدي المتشنّجة تركه، أنا ميت من التيار الكهربائي، مسمَّر في مكاني، كينونتي كلّها ليست أكثر من كتلة قاسية، متحجِّرة: أنا سفيه.

هم ينظرون إليَّ مشفقين، لم يعدْ أحد يستطيع فعل شيء لي، لا أحد يستطيع المجازفة بالمجيء لنجدتي... إنّ الذين يمدّون اليد للامستي من طرف الأصابع فقط قد يمرّ بهم التيار بدورهم، قد يصبح بعضنا ملتحماً إلى بعضنا الآخر في صفّ واحد مثير للشفقة وهزليّ يثير الضحك، إن لم يكن يثير البكاء: سفهاء مساكين.

لا أحد يمكنه إنقاذي... لكني أنا نفسي... لكنْ كيف أمكنني أن أرغب في الهزء بهم؟... أنا نفسي... لكنه مني يخرج التيار دون علم مني، فيجتاز فوراً كلّ ما أعجَب به، تنتشر سفاهتي مني إلى كل ما أحبّه... تسيل مني أنا نفسي وعليَّ وتقديري لنفسي لا يمكنه إلا أن يجمّدني في ذلك: سفيه. أنا المركز، أنا المحور الذي كان يجتمع حوله كلّ شيء، يدور، أنا الذي تستطيع نظرتي، إنْ كنتُ أريد، أن تضيع في كلّ الأماكن البعيدة، أن تصل إلى كل التخوم، أنا المقياس الوحيد لكلّ شيء، أنا مركز ثِقَل العالَم، نُقلتُ، هُجِّرتُ... كل شيء يترنّح... أُلقي بي مهمَلاً في الزاوية، أدور حول ذاتي مسجوناً في الفضاء الذي يحدّ من رؤيتي القصيرة، لقد جرى اصطيادي ضمن لعبة المرايا التي تعكس لي دوماً هذه الصورة البلهاء والمضحكة التي أُسقطُها على كل شيء من حولي دون أن أدري.

لكنه ليس صحيحاً، ليس ممكناً، لا تصدّقوه... انتظروا... أؤكّد لكم، أنْ ليس ثمة مطلقاً من حتميّة للقضاء، ليس ثمة مطلقاً من فطريّة، إنها ليست مسألة دستور، ليس شيئاً لا يمكن تغييره مثل لون البشرة، مثل العِرق، مثل الدم، لا، إنها فقط مسألة اعتراف، مسألة عقيدة، أستطيع تماماً، كما ترون، وقد فعلت ذلك للتوّ، نزعي من ذاتي، الرجوع قليلاً لإمعان النظر

والحكم على نفسي، أنا حرّ في تحوّلي، في التحاقي بالتجمّع... منذ بعض الوقت جرت رؤية الناس الأكثر ذكاءً يتجمَّعون، حتى إنهم لم يبقوا موسومين بهذا، لا أحد يفكّر بلومهم... أما أنا فقد يلزمني فقط وقت أطول قليلاً لذلك، لكنْ، لم يفت الأوان قط، أليس كذلك... فأن تصل متأخراً خير من ألا تصل أبداً... ها أنا ذا... أستطيع تماماً استعادة مكاني... في المركز... في القمة من حيث سوف أرى العالم أجمع يمتد بطواعية تحت ناظري... بإمكاني استرجاع كرامتي والموافقة على مراجعة حكمي، فعلى أيّ حال، لا يتعلّق الأمر إلا بذلك، بتلك النقطة الوحيدة التي لم أتفق معكم حولها، أنا خطّاء، على أي حال، من الممكن أن أكون أنا أيضاً قد أخطأت... ثمار الذهب، لنتفحّص الموضوع قليلاً... الحق يقال، لم يعد لديَّ إلا ذكرى ضعيفة عنها... سأستدعيها مرّة أخرى لتمثُل أمامي...

لتعدْ، لتقتربْ... لكنها تتوارى عن الأنظار... تلك تنزلق، تمَّحي على الفور، لا أتوصّل إلى الإمساك بها... لكن انتظروا... سأتمكّن من ذلك... في هذا القالب الذي كنتم قد أعطيتموني إيّاه، الذي أعرف، مثلكم، استعماله، تسيل المادة غير المرئيّة، تتأقلم تماماً... تأخذ شكلاً، أنا أراها... واهنة... بالفعل... مشوَّهة بدرجة لا بأس بها... بسيطة قليلاً بسذاجة، ذلك حقيقي جداً... غير مستعمَلة... من تلك التي يجب أن تطفو على أفكار أحلام للفتيات الصغيرات، الماسخة من الطراز القديم... تلك الفتيات اللاتي تربّيْنَ في الدير... كلارا ديلّيبوز[1]... آلماييد ديتريمون... لكن ما الذي جرى لي إذاً؟

(١) شخصية فتاة ورد اسمها في شعر الشاعر والروائي والدراماتورج والناقد الفرنسي فرانسيس دجيمس (١٨٦٨ - ١٩٣٨). (م).

كيف أمكنني ذلك؟ كيف؟ مثلي، كثير جداً من الناس... هذا غريب... أين هذا إذاً؟ لقد بحثتُ طويلاً...

وفجأةً، كأنّها فوحة عطرٍ، إشعاع، نور... ميّزتُ بصعوبة مصدرها الباقي في الظلّ... ذلك يتدفّق نحوي، ينتشر... شيء ما يجتاحني... كأنه ارتعاش، اهتزاز، إيقاع... كأنه خط هشّ وثابت مُمتَدّ، مرسوم بعذوبة مِلحاحة... إنها زخرفة ساذجة وصعبة... ذلك يلمع بلطف... يبدو ذلك وهو يبرز على فراغ معتم... ومن ثم ينكمش الخط اللامع، يخفت مثل التلاشي فينطفئ كلّ شيء.

ما يمرّ هناك من ثمار الذهب إليَّ، هذا التموّج، هذا الاهتزاز... هو طنين خفيف... ينتشر منها إليَّ ومنّي إليها كما هي الحال من خلال المادة عينها، لا شيء يمكنه إيقاف ذلك. يمكن للناس أن يقولوا ما يطيب لهم. لا أحد لديه السلطة في قطع هذا التناضُح بيننا. ما من كلام آتٍ من الخارج يمكنه تدمير هذا الانصهار، الغاية في الطبيعية والكمال. مثل الحبّ، هو يعطينا القوّة لمقاومة كل شيء. كعاشقٍ، أرغب في أن أخبّئه. أطلب منهم ألا يروا ما هو هناك، بيننا، ألا يقتربوا من ذلك، هذا كلّ ما أطلبه منهم. ما عندي أدنى رغبة بإقناعهم. لستُ في حاجة لموافقتهم. لا أريد شيئاً من إعجابهم. أيّ كلمة آتية منهم، قد تتوضّع علينا أو قد تلامسنا فقط، تجعلني أتقلّص، أنطوي على ذاتي فتنتصب كلّ إبَري تحفُّزاً. سأصطنع الموت. الصَمَم. العمى. سوف لن ترى عينايَ المثبّتة أمامي نظراتهم وهي تلتقي وتتبادل التأكيد على ثقتهم، على تفاهمهم، على تفوّقهم. سوف لن أرى سروراً سفيهاً ينسلّ منهم ويتلألأ على وجوههم.

لكنّ شيئاً ما يثيرني، يحملني معه، يكسر كل محاولتي في المقاومة، يُحني إرادتي، إنه شيء ما لا يقاوَم بقَدْر الأصوات الآمِرة، لأولئك الذين اختارتْهم السماء، بترك كل شيء، بالتخلّي عن سكينتهم، عن أمانهم، عن كل ثروات هذا العالم، وتحمُّل الاستشهاد من أجل نصرة كلمة الله، شيء قويّ بقَدْر ما يدفع الثوّار إلى التضحية بحياتهم – العدالة، الحقيقة تنفخان من خلالي غضباً مقدّساً يجعل صوتي يرتعش، الكلمات المنتفخة والمشدودة فيَّ، تنبع... «أنا يجب أن أقول... وكلّ النظرات المتفاجئة تلتفت إليَّ... أنا لست مطلقاً مع رأيكم. أنا، أجد أن ثمار الذهب، رائعة. أحبّ هذا بشكل مُتَعاظِم».

الآن، في الصمت الذي يتبع هذا البريق، يعود الهدوء إليَّ. إنّ همّ تحقيق الفاعلية، الذي يجعل المبشّرين يجدون الكلمات البسيطة لنشر تعاليم الإنجيل بين المجتمعات البدائية المتوحّشة، الذي يجعل الثوّار يجدون الكلمات البسيطة لإقناع الجماعات الجاهلة، وهي الكلمات البسيطة التي ستتمكّن من التغلغل في أرواحهم المعتمة، وفي فكرهم الظلامي، يجعلني أختار دون بذل جهد الكلمات التي سوف يستطيعون فهمها على الفور، فهي تلك التي اعتادوا استخدامها. فأتحدّث إليهم بعذوبة: «نعم، كما ترون، أنا، ما يدهشني، هو أنه توجد في ثمار الذهب مهارة غاية في الكمال، شيء ما غاية في وضوح الانسجام... كان لهذا أن يكون أكثر سهولةً بما لا يوصَف لو جرى سبر الأعماق، لو غِيص في التعقيدات... كان لهذا أن يكون أقلّ دقّة بما لا يُقاس لو نُشر القلق والاضطراب عن طريق المحاباة... بدلاً من هذا: ثمة تلك البساطة، حتى أحياناً تلك التفاهة... لكنها ملكت القلوب ببذل جهود جبّارة، هذا بدهيّ... على حساب أي تخلٍّ... لقد أظهرت الفراغ، اليأس – ولكن بأي فن مرهف! – دون أن يُقال

أبداً أي شيء... بخَفَر غاية في الروعة... لا أعرف لماذا تجعلني ثمار الذهب أفكّر ب واتّو... أجد فيها اللياقة الهشّة عينها، السوداوية الحنون عينها... وتلك النهاية... إذاً، إنها مدهشة... حين يغرق كل شيء في الارتباك... تودي بنا إلى ارتباك فكريّ تام... نعم، ثمار الذهب، بالنسبة لي، هي أجمل رواية ميتافيزيقية... صدّقوني، كان يلزمنا سيطرة خشنة، تجريد خارق كي نصل إلى النهاية دون التخلّي عن مثل هذا المشروع...»

ضحكة ساخرة قصيرة وحادة تجيبني: «مثل هذا المشروع... أنت تريد الضحك... آه من الواضح أنك لا تعرف بريهييه».

أنت لا تعرف بريهييه... هذا بسيط جداً. إنه يفسّر كلّ شيء. نحن نفهم جيداً جداً. ها أنت ذا معذور تماماً... لا تخشَ شيئاً... ماذا تريد أن يحدث لك؟ لا يمكن أن يكون الأمر هنا، بيننا، في أن نُقْصيك، في أن نحكم عليك... لكنْ أي فكرة هذه... كيف يمكن تخيّل فضيحة كهذه! أنت منّا وفينا، أنت هنا بين أندادك، يجب عدم نسيان ذلك... تستمرّ نظراتهم في التفريغ فيَّ، بالطنابر، التأكيد على ثقتهم بتفوّقنا المشترك، التأكيد على تضامنهم... حتى لكأنّ الشكّ في الإعجاب بالنسبة لي يطلق منها، بشرارةٍ من هنا ومن هناك، بعضَ الشذرات... آه هذا القلب الدافئ، الخالد في شبابه، آه، هذا الرأس الساخن... لا يزال دوماً على حاله من الحماس، وجاهزاً دوماً للانطلاق في الدفاع عن القضايا الخاسرة، في العطاء للمُعدَمين... هو غاية في الغنى، هو غاية في الكَرَم... وغاية في التواضع... جاهز دوماً للتلاشي... ينسى أنّ ما يعجبه في ثمار الذهب، هو ما أضفاه عليها هو نفسه... من غير المحتَمَل حقاً التفكير في أنّه يمكنه الاستسلام لخداع رجل مثل بريهييه، وهو الذي لا يصل مستواه إلى

رسغه... يحتاج إلى الدفاع عنه، يجب أن ينتبه جيداً... لم يكن ليفوتك الانتباه أنت نفسك لو أنك التقيتَ بِـ بريهييه، لو أنك عرفتَه مثلنا... إنّ ثمة نقصاً سنملؤه نحن بسرعة كبيرة... سترى ذلك حالاً... العين هنا لديها الحِرص... تعال إذاً قربنا، أكثر قرباً بقليل، تراصّوا الواحد إلى الآخر، تزاحموا... يشعر المرء بأنه بخير... سترى، سوف تُدهَش... مَنْ يريد منكم أن يُبيّن له ذلك؟ لكنْ جميعنا طبعاً... نحن نضرب الأرض بأقدامنا، نحن فاقدون للصبر، مُثارون جداً... أنا... اسمحوا لي... أنا أستطيع أن أسرد لكم... طيب، أنتَ، يا جان – بيير، أنتَ مناسب تماماً... لكنْ لا... أخيراً... هذا صحيح... أعرف بريهييه منذ زمن طويل... قبل أن يصبح مشهوراً بوقت طويل... عليَّ القول إنه كان دوماً يصدمني بذوقه السيّئ... نوع من التفاهة الفكرية... كان يُستَفَزّ من غباء القيل والقال، من الخِسّة... هو «حرمة» بحق... كان قادراً... جان، أنت تذكر، حين حوصرنا بالعاصفة، في هذا النزل - المأوى... نعم، في ليغويّ دو غوتّيه[1]... لأنه كان يتسلّق الجبال... نعم، لحظة... كنا قد قمنا بسباقات في الجبل... تسلّق غير مرتفع... لم يكن قوياً جداً، ولا شجاعاً جداً... وكان مدّعياً، مدّاح نفسه إبليس... قضى الليل وهو يتكلّم، لم يتمكّن أحد من إيقافه... آه لو كنتُ أتذكّر ذلك... آه يا لَلعذاب... تعرفون أنه كان لديه في بيته... هيا، تعالوا، تفضلوا... القصر فارغ، الملك المخلوع هارب... لننتشرْ في كلّ مكان، لنفتّش... لنفتح الدروج، لنقلب الأسِرّة، انظروا إلى هذه الألبومات، إلى هذه الصور، إلى هذه البطاقات البريدية... آه إنها الحلاوة... ها

---

(١) هو نزل في جبل المون بلان، جنوب شرقي فرنسا، وهو مرتفع جداً. أُعيدَ بناؤه العام ١٩٣٦ ثم جرى توسيعه في العام ١٩٦٠.

هو ذا ما يهتمّ به، عظماء هذا العالم... لقد جعل أحدهم يُجلِّد... نعم، أقسم لكم، انظروا إلى مجموعات الكتب الضخمة تلك... كان يجمع الرسوم الكرتونية الكوميدية، «بيم بام بوم»... وكتب الرسوم المتحرّكة بعنوان «المضحكين»... يقرأ هذا في ساعات... ومجموعة أسطواناته الموسيقية... لا يمكن تصديق ذلك... أصغوا... إنها أسوأ «السكتشات» النقدية... موسيقا الجاز الأكثر سوقيةً... لنفتِّش، لنتقصَّ بالتوقّع، لا شيء يمنعنا... نحبّ التوزّع على كلّ شيء... يوميات حميمة، رسائل، أسرار، داخل الدروج المنسيّة، القيل والقال من الشهود، مذكرات الخَدَم المطرودين... كلّ شيء جيد بالنسبة لنا. لا شيء مقدّساً بالنسبة لنا. لا أمكنة مقدّسة. لا محرَّمات. إنّ هؤلاء أنفسهم الذين قد يكون عملهم الفنّي مُبعَداً لم يُوفَّروا، بل على العكس تماماً، ينبعث منهم بالضبط، من حميميتهم شيء ما عذب بشكل خاص، شيء ما يهدّئنا، يطمئننا، يؤكّد لنا أننا جميعنا متساوون تماماً في العمق، حين يُنظَر إلينا عن قرب، كل الرجال في النهاية، متشابهون تماماً، بالرغم من هذا التفصيل –عملهم الفنّي... نحن لا نحلم بلمسه، نتركه لهم عن طيب خاطر... إنه حادث، انتباج فضوليّ، إنه مرض، نحن نمنحه، هناك، معجزة صغيرة... لا يمكن تفسيرها... لكنْ أما بالنسبة للباقي، يا له من تشابه... أما بالنسبة لكلّ الباقي –كيف لا يُرى؟ - غالباً ما نجد فيه كثيراً من الضعف، كثيراً من الكسل، من الإهمال، كثيراً من السلوك الطفولي، من الانحراف، حتى علينا الاعتراف بأنه أحياناً من الصعب ألا نشعر بإحساس شرعيّ تماماً للتفوّق، في مثل هذه الوضاعة.

لكنْ حين يتعلّق الأمر بِـ بريهييه... حين يكون العمل الفنّي على صورة الإنسان... حين لا يكون ثمة أي معجزة، علينا أن نلاحظ –وحقاً دون رضا

كبير، في ماهية إمكان إسعادنا من ذلك، رفْعِنا، أسألكم – نستطيع التأكيد، صدّقنا: هذه البساطة، هذه السذاجة التي تُعجب بها كثيراً عند بريهييه... لكنْ لنرَ بأنها لا تملك شيئاً من التناغم... هو يصدّق كلّ شيء بسذاجة، تأكّدوا من ذلك. ويذهب بعيداً بقدر ما يكون قادراً على الذهاب. وهذا الغموض المعتم للنهاية، الذي طالما أذهل الناس... لم يكن أحد ليجرؤ على القول إنه لم يفهم شيئاً... لكن كذلك الأمر بالنسبة لِـ بريهييه، هذا بدهيّ... كان يجب فقط الالتزام بالموضة الرائجة... إنه محتال... لكنْ ما الذي يصيبك؟ يبدو عليه التشنّج التام، يبدو أنه منزعج... آه هؤلاء الرومانسيون، آه هؤلاء الحالمون الذين لا يمكن إصلاحهم... يحبّون الضياع في السحب... دَوْسَ المراعي المزهرة بأقدامهم... استنشاق الهواء المنبعث من القمم والمَمَجِّد لها... واتّو... كما ترى... ما هو الذي لن يبحثوا عنه؟ يا له من جاذب... يا لها من رفعة، يا له من عمق... بؤس ميتافيزيقي، اضطراب فكري من نوعية جيدة... دعنا نضحك... آه هذا حزين جداً، أليس كذلك، إنه لمن المؤسف الانسلاخ عن كل ذلك، والعودة المجبَرة إلى هنا في الحياة الواقعية، قربنا، في الواقع الوضيع، في الحقيقة المتواضعة. لكنْ ماذا تريدنا أن نفعل، يجب على المرء الخضوع لذلك: فهي الأقوى. عاجلاً أم آجلاً، مهما فعل المرء، ما من سبيل للهروب منها...

لا. انتظروا. ثمة شيء ما لا يصمد هنا. لا أدرك تماماً ماهيته... لكني أشعر أنّ ثمة شيئاً ما مزيَّفاً... هو شيء ما زُيّف عن قصد. يجري التلاعب بي... لكنْ في أي مكان وقعتُ أنا؟ بين أي أناس؟ في أي مَقمَرة؟ أنتم تغشّون. ها هو ذا البرهان على ذلك. أنا أمسك به... رامبو أيضاً، أتسمعونني... رامبو... ومع ذلك، مَن منكم قد يجرؤ على مهاجمة أعماله؟ لا أحد، أليس كذلك؟ إنها مقدّسة.

«كان رامبو بالضبط مثل بريهييه... كان رامبو يحبّ أيضاً كلّ ذلك، أنت تعرف هذا: الرسومات الغبيّة، كتب الحبّ الحسّي دون كلمات مكتوبة، الكتب الضحلة للطفولة، اللازمات الساذجة، أدب الطراز القديم... رامبو أيضاً... مثل بريهييه...»

ينتصبون جميعهم معاً، متحجّرين، متراصّين الواحد إلى جانب الآخر، مشكِّلين حشداً واحداً:

«نعم، لكن هذا، هيا قلْ... أحمي وجهي، أحني ظهري... هذا ما كان عليه رامبو!»

* * *

آه المسكين الصغير، كم كان يكافح... يثير الحزن لدى رؤيته... كان يجب الاستماع إليه وهو يحتجّ بصدق، ويقدّم الدفوع... في ما يخص التأثيرات، بالتأكيد، كان على استعداد تام للاعتراف بها، فقد تحمّل منها كثيراً... كيف السبيل إلى تفاديها؟ ما هو السوء في ذلك؟ لماذا مداراتها؟ أهي الأسماء؟ لكنْ ها هي ذي. لم يكن ليطلب شيئاً أفضل من أن يعطيها. حتى إنه ربما كان على استعداد تام للاعتراف بذلك، لو كان هذا حقيقياً... ربما استطاع أحياناً، دون علم منه... يمكن أن يحدث هذا... ليس ثمة من جيل عفوي، في الفن كما في أمورٍ خارجه... لكنّ ذلك لا. ليس هذا. ليس ما أُريدَ نسبه إليه. هذا لا، لقد كان مزيّفاً، بالغ الزيف. هؤلاء الناس، لم يكن قد خالطهم قط. هو يعرف أسماءهم فقط لا غير. ولديه شهود يمكن استجوابهم، فقد يقولون متى، في أي سنة كانوا قد تحدّثوا إليه عنهم للمرّة

الأولى... ما كان عليهم نسيان ذلك... لقد فوجئوا برؤية أنه لم يفتح كتبهم قط، لم يقرأ منها سطراً واحداً قط. هذا لا يُصَدَّق، هو يعترف بذلك، لكنْ، إنْ جرى استجواب الأشخاص الأفضل بيننا، فقد يكشفون في قراءاتهم عن هذه النواقص الضخمة. كان باستطاعة كل الخبراء في العالم إدانته... قد لا يكفّ هو أبداً عن التأكيد على أنهم قد أخطؤوا جميعاً، فهم لا يفقهون شيئاً في ذلك، إذ لا شيء مشتركاً، ولا أي تشابه. يمكنهم ملاحظة ذلك لو أنهم كانوا ينظرون إليه عن قرب أكبر. سوف يندمون في ما بعد، وهذا سيّئ للغاية بالنسبة إليهم... مجنوناً بالكبرياء، كان يصرخ بذلك... ما يوجد هنا، في ثمار الذهب... ما يميّزها عن كلّ ما كُتِبَ على الإطلاق حتى الآن، هو له، له وحده، منذ الأزل... لم يستطع أحد قط التغلغل بينه وبين ذلك، فمنذ طفولته أُقيمَ هذا الاتصال، المباشر، العفوي... إنه إحساسه هو، الندي، السليم، الجديد... الذي يتغذّى على ما يختبئ في داخله الشخصيّ الأكثر سرّيةً... إنها مادته الأكثر حميميةً التي تجد شكلها من ذاتها، كأنّ ذلك قد انبثق رغماً عنه...

إنه حقاً لَمِنَ الشجن أن يرى المرء مدى التشابه بينهم جميعاً، ومدى امتلاكهم جميعاً لهذا الوهم نفسه. كلّ واحد مقتنع أنّ المعجزة قد أُكمِلَتْ من خلاله فقط.

لكنْ مهما احتجّوا، مهما توسّلوا، لن يستطيعوا أن يفلّوا من عزيمتنا. لا شيء يمكن فعله، من المستحيل خداعنا. فِكرُنا مصمَّم هكذا كأنه يتوصّل إلى احتواء أدب العالم كلّه ضمنه، وهذا الأدب مسجَّل وكأنه على بطاقات

لعبة يانصيب «اللوتو»[1]، ومقسَّم إلى مربّعات صغيرة مرقَّمة. فليظهر شيء ما مجهول وسنلتقطه فوراً، ونقلبه ونقلِّبه. أرني هذا. دعني أر هذا «الفيش» قليلاً. ما رقمه. آه، ها هو ذا. انتظر... أنا أرى... مكانه هناك، ها هو ذا مربّعه... أحياناً يجري البحث قليلاً... لكنها غاية في العذوبة، هذه الاستثارة، هذه السكينة، لا شيء يسلّينا كما تفعل هذه اللعبة حين... هاكَ... لكنه هناك، هو لديَّ، مرِّرْه من هنا، أعطني إيّاه.

يُصادف أحياناً أنّ شاباً شارد الذهن، حتى قبل أن يجرؤ على تحقيق مشروعه، وهو مأخوذ تماماً بفَقْدِ الصبر، مُثار بالحماس، بالأمل، مُصاب بالعمى من كبريائه، يأتي بنشوة مفاجئة متبخترِاً أمامنا...

«كما ترون، أنا لا أتحدّث بذلك إلا معكم. استمعوا إلى الفكرة التي خطرت لي... إنّ هذا الإحساس الذي يتحرّك في داخلي، وقد بدا لي في لحظة إلهامٍ أنّ عليّ لفّه على ذاته، باتجاه الأعلى باستمرار، مسحوباً بحركته عينها، قد ينتشر من خلال الكتاب بأكمله في حركة حلزونية... حلزونية؟ نحن ننقضّ على ذلك: حركة حلزونية؟ انتظر. هذا يذكّرني بشيء ما. انتباه، هاه. احذر. أنتَ تعرف أنه جرى فعل ذلك منذ مدة طويلة».

وكلّ شيء فيه يتقلّص على الفور، يتهاوى. إحساسه مثل زهرة شجرة التفاح التي لم تكد تتفتّح حتى هبّت عليها نفخة ريح شرقية، فأخذت تذبل، تتدلّى ببؤس، ومن ثم تتهاوى.

---

(١) تحتاج لعبة اليانصيب المسمّاة «لوتو» إلى لاعبَيْن وإلى بطاقات مؤلّفة من ١٥ رقماً موزَّعاً على ثلاثة صفوف من تسعة مربّعات؛ إضافة إلى مجموعة من «الفيش» تحتوي على تسعين بيدقاً مرقَّماً من واحد إلى تسعين. **(م)**.

من الأفضل هكذا، حين تحين الفرصة، أن يتّخذ المرء مسبقاً احتياطاته، ليتفادى في ما بعد تعاظم العمل الذي لا فائدة منه.

أنتم ترون إلى أيّ إفراط يمكن ترك الأمور كي تصل إليه حين لم يكن بالإمكان التدخّل في الوقت المناسب. إلى أي فوضى، إلى أي هلوسة جماعية، إلى أي هيستيريا. يجد المرء نفسه طافحاً، عاجزاً عن صدّ الموج العظيم. مجبراًعلى الانتظار، لفترة طويلة أحياناً، كما حدث ذلك في هذه المرّة، في ما يخصّ ثمار الذهب...

لكنْ بالنتيجة، يستتبّ كل شيء في النظام. نسهر دون توقّف في كلّ مكان. في كل الشوارع يتجوّل رجالنا حاملين لافتاتهم، على ظهورهم وصدورهم، وعليها بأحرف ضخمة: قد قيلَ كل شيء. لا جديد تحت الشمس. في كل الساحات، يهدّئ مبشّرونا السكانَ: «هدِّئوا من ندمكم الغامض، أوقفوا أحلامكم، وجِّهوا حنينكم نحو أهداف أكثر تأكيداً وأكثر فائدةً، اشفوا من شعوركم بالدونيّة. لا شيء تندمون عليه. ليس عليكم أن تقلقوا. لا شيء لتبحثوا عنه، لن تجدوا شيئاً: قد قيلَ كل شيء».

أحياناً – وهذا يحدث – فجأةً ووسط الحشد، ثمة امرأة أو رجل يسقط، ينثني، يخمش وجهه، يطلق الصيحات المرتبكة: «وماذا عن رامبو؟ رامبو...»

مخترقين إذاً بهدوء الحشدَ المستثار الذي يتحرّك جيئةً وذهاباً فيقتربون من المسعور... يداعبون رأسه، يقولون كلمات مهدِّئة... «لكنّ هذا كان رامبو إذاً. هيا، هيا، عُدْ إلى رشدك. ما هذا اليأس، وهذه الصرخات... هذا كان رامبو. اهدأ. لا تخفْ. نحن القاعدة، ورامبو هو الاستثناء».

ينتظم كل شيء. الموتى، الذين ماتوا للتوّ، الذين ماتوا منذ زمن بعيد، منَظَّمين ضمن مجموعات، الصغار، مَنْ هم في الوسط، الكبار، يرتاح كلٌّ في مكانه. انظر كيف نظّمناهم. لقد شرّحناهم، صنّفناهم ورقّمناهم.

يبدو على الكبار النافحين عطراً، المنتفخين بالبارافين والمزيّنين بمواد الزينة، كأن لهم مظهر الأحياء. يحرسهم حرّاس جامدون ليلاً نهاراً، فتمرّ أمامهم برزانة الحشود الصامتة، مستعرِضةً إيّاهم، جيلاً بعد جيل.

لكنْ حتى هؤلاء الكبار، هؤلاء الذين كانوا يشعرون بأنهم غاية في الحرية، غاية في الخفّة، والجسارة، هؤلاء هم غاية في التأكُّد من كونهم فريدين، وغير متوَقَّعين مطلقاً، سيفاجؤون برؤيتهم للمكان، وللأشخاص الذين وُضِعوا إلى جوارهم، وسيفاجؤون بمعرفتهم لما كشفتْه مناهج أبحاثنا... بما أنهم هم أيضاً كانوا يتأرجحون حسب ما تودي بهم التيارات، ويتجمّعون طبقاتٍ ويُدفَعون بالمدّ والجزر المنتظم لأمواج البحر.

الآن من أجل هذا الشخص، الذي يجب الإسراع حتماً في تصنيفه، فهو يستحق مكاناً مؤقتاً على الأقل، إنْ لم يكن لشيء فعلى الأقل بسبب كل هذا الضجيج الذي أثاره... بين الصغار، هذا بدهيّ... لكنْ – وهنا تكمن المسألة بأكملها – إلى جوار أي صغار، وعند قدميّ أي كبار؟

- ما كان عند بريهييه... ما كان رائعاً حين تقرأ ثمار الذهب... عليّ القول إني أنا كنتُ دوماً أفكّر فيه، لم أكن أقول ذلك... لستُ مجنوناً... مَنْ ذا الذي كان يجرؤ؟... ما كان حلواً، هو أنه في كل لحظة كان يُعمد إلى إيقافنا... فنقول لبعضنا بعضاً، اسمع، اسمع، لكنْ ما هذا؟ لكنْ من أين يأتي هذا؟... يبدو لي أني سمعتُ هذا من

قبل، هذا صوت معزوف على وتر معروف، هذا الإيقاع، سقوط الجملة هذا... هي نبرة معيّنة... هذه الصورة، لكنها تذكّرني بشيء ما، لكني رأيتُ هذا في مكان ما... هو تعبير، كلمة واحدة أحياناً، ومن هناك كان يبدأ الانطلاق، كان يجري البحث... شخصياً، كنتُ أجد هذا مسلّياً جداً. فهذا يسمح لي بالملاحظة أني احتفظتُ، بالتأكيد، بمعرفتي القليلة المخزَّنة، سليمة نوعاً ما. كنتُ أبحث، وتقريباً أجد دوماً ما أبحث عنه. إنّ كتاباً مثل ثمار الذهب، عبارة عن لعبة عُقدة حقيقية. مصنوعة من قطعٍ مجموعة... من حِيَل تأتي من كل مكان...

- أنا أصدّقك... أتعرف أني كنتُ قد اكتشفتُ فيها قصائد أناكريون[1]...

- أنا اكتشفتُ، أثر الآنسة دي سكوديري[2]...

- لوتريامون[3]...

- وشتيرن[4]، ألم تجده. هو خاصةً...

- لا، هنا أنا لستُ متفقاً معك. أتذكر توماس مان[5]، أتذكر كتاباته الأولى؟

---

(١) أناكريون (٥٥٠– ٤٦٤ ق. م.). شاعر إغريقي، اشتُهِرَ بقصائده الغنائية الخفيفة، ذات المعاني المتناقضة، مثل: «أحبّ ولا أحبّ. أنا مجنون وأنا لستُ مجنوناً». (م).

(٢) هي مادلين دي سكوديري (١٦٠٧ - ١٧٠١). كاتبة فرنسية. (م).

(٣) الكونت دي لوتريامون (١٨٤٦– ١٨٧٠)، وهو اللقب الذي كان يكتب باسمه إيزيدور دوكاس. شاعر فرنسي. يعدُّ لوتريامون أول من كتب قصيدة النثر وذلك في العام ١٨٦٧. (م).

(٤) لورانس شتيرن (١٧١٣ - ١٧٦٨). كاتب بريطاني. من مؤسسي الرواية الحديثة. (م).

(٥) بول توماس مان (١٨٧٥ - ١٩٥٥). هو أديب ألماني. حصل على جائزة نوبل في الأدب سنة ١٩٢٩. (م).

- هل يقرأ بريهييه الألمانيّة؟
- لكنها ظهرت منذ زمن بعيد بالفرنسية في طبعة صغيرة، قد نفدتْ حقاً، وقد حصلتُ على نسخة لي بين يديَّ منذ بضع سنوات. الشَّبَه مذهل.
- أوه أنت... لا يمكن لشيء أن يفلت من بين يديك... أيوجد بالنسبة لك أي خفايا في الأدب...
- أنت تمدحني كثيراً...
- لا أريد الإساءة إليك، لكنْ حقاً، حين يتعلّق الأمر بكتاب ثمار الذهب... يبدو لي أنه ما من حاجة إلى عميق بحثٍ. النماذج هنا، قريبة جداً... هذا واضح جداً...
- لاحظ أنه لو كان بريهييه يملك الموهبة، لما كان لذلك أهمية. فكل شيء يتوقف على ما فعله بكل هذا... ليس بالشيء الكثير – هنا تكمن المأساة...
- كان ذلك مغطّى بطلاء لمّاع خفيف... حسب الموضة... لم تكن تنقصه مهارة بعينها...
- أوه، أهذا ما تظنّه؟
- نعم بالتأكيد. بهذا جذب الآخرين بشكل كبير... كان هذا يبدو جديداً ومعروفاً. هذا ما يعشقه الناس... هذا ما يجب فعله في حال أردنا النجاح... صدّقني... هذا هو السرّ...
- أوه، يا له من نجاح... المسكين، انظر إلى أين وصلتْ به الحال. ذات يوم توصّل أحدهم إلى أن يقول أمامي إنَّ مشهده الشهير عن

الحبّ كان يبدو أنه خارج مباشرة من بين صفحات المجلة... أسرار القلب...

- هذا صحيح بما يكفي، اعترف بذلك.

- أجد بأننا طيبون زيادة عن اللازم. نحن هنا نهرش رؤوسنا... لنجد له أصولاً، معلّمين... توماس مان... لوتريامون... لنتساءل أين؟... بالقرب ممَّن؟... أؤكّد لك، إنّ هذه هي بقايا من جنون...

- المقبرة الجماعية... بدهيّاً... هذه طِيبة كافية تماماً... إنّ الكتب التي من هذا النوع لا يحق عليها سوى النسيان.

* * *

نعم، إنه الوقت المناسب لقول هذا الكلام، لقد انطلقنا بشكل سيّئ. ها هي ذي حالنا تتقلّص إلى ما يستحق الشفقة. معزولون، نحن غاية في العزلة، إلى درجة لا يمكن تصديقها. حاولتُ جاهداً من حينٍ إلى آخر... يجب فعل ذلك... لا يدري المرء أبداً ماذا سيحصل... ولو كان يوجد فجأة شخص ما ليجيب، صوت آخر مختلف فقط... يا له من شعور بالارتياح! لا لزوم لأكثر من ذلك كي نشعر بأننا على وشك أن يجري إنقاذنا. لكني حاولتُ جهدي عبثاً، مستغِلاً لحظة الهدوء التي تلت العاصفة، لحظة الصمت، بثبات كي أجبرهم على الإصغاء، لكنْ بعذوبة كي لا أجعلهم يهربون، حاولتُ جاهداً من حينٍ إلى آخر، وعبثاً، طرح السؤال: «وثمار الذهب؟» فتنزلق من فوقي للحظةٍ نظرةٌ واحدة على الأكثر ثم تنحرف. لكنْ على الغالب الأعمّ هم حتى لا يستمعون...

هذا لأنهم في غاية الانشغال، لديهم دوماً مثل هذه الضوضاء. هي دوماً الصيحات نفسها، الإغماءات نفسها... ودوماً لديهم هذا اليقين، الذي يفاجئني في كلّ مرّة. يمرّ استعراض الأسماء من دون توقّف، حتى إنني لا أحاول حفظها.

«الإنسان في الكون»، «العمل الأدبيّ الضخم»... «أفضل من الحرب والسلم»[1]... «الإنسان المعاصر في كفاحه ضد المشكلات الكبيرة لزماننا»... هذا ما يشغلهم في هذه اللحظة. لاحظتُ أنه في لحظات مثل تلك، حين يشعرون هكذا بأنّ التاريخ يأخذهم، كما يفعل مركب كبير رائع، مجهَّز بأحدث التجهيزات، مستثيراً في طريقه الأمواج وامتدادات المياه المتطاولة العظيمة التي تجعل المراكب الصغيرة الهشّة من حولهم تتراقص وتنقلب، لاحظتُ أنهم متيقِّنون من أنفسهم ومسرورون، في تلك اللحظات بالذات خاصةً... يجب الاعتراف بذلك، يمكن فهمهم بطريقة ما. حدث معي أنا نفسي أحياناً أنْ حسدتُهم... كنتُ متأثِّراً... ومن ثم دفعني الفضول، وهذا الصدق هو صفة حسنة أساسية عندي، وأقول ذلك دون تشاوف... فذهبتُ لزيارة هذه المعالِم الضخمة. تفحّصتُ عن قرب أكبر هذه الأعمال الأدبية المتناسبة مع زماننا. لكن لم يكن ثمة شيء لأفعله، كنتُ أشعر بالانزعاج، كنتُ أشعر بالملل...

هذا لأني، كي أصبح مسترخياً، مطمئنّاً، عليَّ وبأيّ طريقة كانت أن أجد، ولا يهمّ المكان... أشعر بذلك تماماً، لكني لا أعرف كيفية التعبير

---

(١) «الحرب والسلم» هي رواية للأديب ليو تولستوي، نشرت أول مرة من سنة ١٨٦٥ إلى سنة ١٨٦٩ في مجلة المراسل الروسي؛ وهي تروي قصة المجتمع الروسي في عهد نابليون. (م).

عنه... ليس لديّ تحت تصرّفي سوى كلمات فقيرة مستهلَكة بشكل كامل من كثرة خدمتها للجميع ولكلّ شيء... قد يكون عليَّ امتلاك المفردات المحسّنة لهؤلاء الدكاترة العلماء. أعرف أنهم قد يجدونني مضحكاً لو استمعوا إليَّ. لحسن الحظ، لن يستمعوا أبداً. أخيراً... ما أريد قوله، هو أني أنا، كي أشعر بنفسي مسروراً مثلهم وفي مكان آمِن، عليَّ أن أجد... ولا يهمّ المكان لذلك... حتى في عملٍ أدبيّ ضخم، لمَ لا؟ ليس لديَّ أحكام مسبقة... عليَّ أن أشعر... لا أدري تماماً ماهية ذلك... إنه شيء ما يشبه ما نشعر به أمام النمو الخجول لساقٍ أول نبتة... الزعفران الذي لم يتفتّح بعدُ... إنه هو العطر الذي يفوح منهم، لكنه ليس عطراً، حتى إنه لم يصل لأن يكون رائحة بعد، ذلك لا يحمل أيّ اسم، إنها رائحة تسبق الروائح... يبدو لي أنه كذلك... إنه شيء يستحوذ عليَّ بهدوء ويمسك بي من دون أن يفلتني... شيء سليم لم يُمَسّ، بريء... مثل الأصابع الرقيقة لطفل يتعلّق بي، مثل يد الطفل التي تتجمّع في تجويف يدي. رقّة واثقة تجتاحني بكليّتي... هي تتغلغل في كل جزيء مني...

مهما كلّف الأمر أريد أن أظهر جديراً بذلك... لا أريد خيانتك... هذا ما يمنحني الرغبة أحياناً في نسيان أيّ حذَر وفي إطلاق ندائي حين يجب عدم فعل ذلك، حين يكون من الأفضل لي ولك أن يساعد بعضنا بعضاً على النسيان... وثمار الذهب؟ عندي رغبة في قول هذا... هل تذكر ذلك؟... فالانغماس يأتي فقط من حياة التخلّي... ماذا يهمّ من المعالِم والبنى التي أبعادها هي من أبعاد العالم إنْ لم تكن تحوي الزعفران الذي لم يتفتّح بعدُ، يد الطفل... أهناك يكمن الأمر أم لا؟ تلك هي المسألة كلّها. لا أهمية إلا

لذلك، صدّقني... أتساءل، حين تحين اللحظة لهؤلاء أيضاً، الذين هم اليوم في غاية القدرة، كي يتعلّقوا بأناس مثلي من أجل إنهاء الطريق الطويلة حتى آخرها، كيف سيتصرّفون، كيف سيتمسّكون بهم لجعلهم يتشبّثون... لكنني سأمتنع عن ذلك. سأصمت. قد يسحقنا الهزل. فهم يستخدمونه بشكل ممتاز. نحن في غاية الهشاشة وهم في غاية القوّة. أو ربما، أشعر بذلك أيضاً من حين إلى آخر، ربما، دون أن أنتبه لذلك، لديَّ اليقين بأننا نحن، أنا وأنت، الأقوى، حتى في هذا الآن. هم ربما يثيرون شفقتي عليهم قليلاً... لا أدري... لنقلْ ببساطة، مثل كل الناس، إني أصمت تهذيباً مني، رقةً، تلك من القلب. إذاً لن أقول شيئاً.

في ما مضى فعلاً، حين كان لقاؤنا ينتهي للتوّ، أنا وأنت، قبل أن يكون الجميع قد استولوا عليك، وقبل أن يبدؤوا على شرفك ينظّمون كل حفلات الاستقبال الكبيرة تلك بفخامة وأبّهة، وينشرون لأشخاص لحفظ النظام، كنتُ أظهر حَذِراً دوماً. كنتُ أنتظر مبادرة الآخر، كما يفعلون غالباً... كنتُ أريد رؤية الاتجاه الذي قد يأخذه كي أتبعه عن قرب.

قيلَ إنّ ما يحتمله الناس بشكل أقلّ، هو أن يُتّهموا بالتنشيز. أعتقد بأنه إنْ اشتُبه بالمرء بأنه يفتقد للذوق فهو أمر محزن بشكل أكبر. وتكون حركتي الأولى أيضاً هي التراجع دوماً. ومن ثم، أقول ذلك لنفسي أحياناً، ربما، بالنتيجة، إنني أنا المخطئ، لأني في النهاية، مَنْ أنا؟ ماذا فعلت؟ حتى إني لم أفكّر قط في محاولة كتابة رواية. أتساءل كيف يتصرّف المرء في ذلك. حتى إني لا أعي، مثلاً، وأنا أقرؤك، إنْ كان ثمة من صعوبات لتجاوزها، ومن أي مستوى. لا أتخيّل أي عائق على دربك. يبدو لي أن كل شيء يسيل

من نبعٍ، فيتطوّر طبيعياً. حين أرى الناس المؤهَّلين يشرّحون بهدوء عملاً ما ويتفحّصون القِطع المفصولة: هناك، لا بأس به، إنه مناسب جداً. لقد نجح الكاتب في ضربته. هل رأيتَ المشهد على باب المقبرة؟ ممتاز. والعجوز القصيرة الجالسة على المقعد على تخوم العشب الأخضر؟... لا شيء يُقال في ذلك، إنها قطع جميلة... أُدهَش دوماً، أتساءل كيف يفعلون ذلك. بالنسبة لي، أي شيء، أي جزء صغير، مأخوذ كيفما اتفق، أعطيه قيمة فيما لو تسلّل إلى داخلي أم لا. وعند اللزوم، فهو يسحب وراءه كل ما تبقّى. يشكّل ذلك كلاً لا يتجزّأ. مثل الكائن الحيّ. لكنْ بالنسبة لهم، يجب التصديق بأن الأشياء تتمّ بشكل مغاير. إذاً، بما أني أشعر بذاتي معوزاً للغاية قربهم، فيحدث لي أن يراودني الشكّ. حتى في ما يخصّك أنت، فقد حدث لي ذلك. لكني في كل مرّة أعود فيها لأقترب منك، وأكون مستعدّاً للاعتراف بأني أخطأتُ... يعود من جديد ليتكرّر الحال بيني وبينك على الفور... فينتهي بي الأمر إلى الشعور باليقين التام في ذاتي... إضافة إلى ذلك فأنا استطعتُ أن ألاحظ أن كل هؤلاء العارفين الذين كانوا يؤثِّرون فيَّ كثيراً، يستسلمون للشرود في غاية السهولة... يتغيّرون دون توقف، يرتدّون على أعقابهم، ينسون... في هذه اللحظة، يجب الاستماع إليهم... تعود الكلمات نفسها لتتكرّر. يُعتَقَد ربما أنّ الحديث هو عنك. جرى نسيان العمل الأدبيّ الضخم، غرق مركب التاريخ... يتعلّق الأمر من جديد بجوهرة التاج الصغيرة المصقولة جيداً... الكمال... أجمل ما كُتِبَ منذ خمسة عشر عاماً... منذ عشرين عاماً... هي الأعداد عينها دوماً: بين عشرة وعشرين... تبعاً لاستثارتهم زيادةً أو نقصاناً، يستفزُّ بعضَهم باستفزاز بعضِهم الآخر... لكنْ بالرغم من كونهم في غاية الاهتياج، فهم نادراً ما يجرؤون على تجاوز الأعوام

الثلاثين. مع ذلك لم يمضِ وقت طويل جداً حتى جاءتهم الجسارة – ولو تدري من أجل أي موضوع! – للوصول إلى خمسين وحتى إلى مئة عام.

لكنْ يبدو لي أني انتظرتُ فترة زائدة عن اللازم. آن الأوان. عليَّ المحاولة من جديد. يجب عدم ترك الزمن يمرّ طويلاً. سأتصرّف بحَذَر. ثمة واحد هناك، بينهم، ينتحي جانباً بعيداً عن الآخرين، يبدو عليه مظهر المُتفرِّغ، مظهر المُستعِدّ... «وثمار الذهب؟ أتذكرها؟» سأمرِّر له ذلك انزلاقاً ببطء... – «ثمار ماذا؟» هذا كل ما قاله لي... يجب عدم الدهشة من ذلك. ها قد مرّت أشهر ولم يحدث لي أن التقيتُ شخصاً ما يتذكّر وجودك. لا أسمع أبداً لفظ اسمك. لكني شعرتُ بأني معه كنتُ أستطيع الإلحاح: «كسرٌّ بيننا، هذا كتاب مشهور. لقد لفّتْه غياهب النسيان، لم أعرف قط السبب. يجب قراءته حتماً». وقال لي إنه سيرى هذا... أعتقد أنه سيفعل ذلك، يمكن الوثوق به... و، مَنْ يدري، إن كان الصوت الآخر هو صوته أم لا؟

كما ترى، سيكون من الخطأ تثبيط الهمم. إنه لمن المستحيل حقاً أن أشكِّل مثل هذا الاستثناء. لا بُدّ من وجود آخرين كثر مثلي في كلّ أصقاع العالم، خوّافين حَذِرين مثلي، منطوين على ذواتهم قليلاً، غير معتادين على التعبير عن أنفسهم. ربما ينادون بخجل دون أن يجيبهم أحد. لاحظ أن مجرّد معرفتنا بوجودهم لا يكفي كي نستطيع الشعور بالاطمئنان الكامل. لأنه من المؤكّد أن هذا الانطباع عينه، الذي تعطيه لهم كما لي، هم يستشعرونه أمام أمرٍ ما، الله وحده يعرفه، وأنا أفضّل ألا أتخيّله. ثمة هنا، وأنا أعترف بذلك، شيء ما يسبّب اليأس بشكل كافٍ. ذلك يجعلني أضطرب أحياناً إلى درجةٍ تجعلني أعتقد من جديد أني أنا مَنْ يخطئ.

لكن يجب مع ذلك الاعتراف مع الأيام، بنسبة مرور الوقت، بازدياد فرصك في الانسحاب من المسألة. هذا الصمت الذي تغرق فيه، نازعاً كل الثياب والزينة التي كنتَ ترفل فيها، عارياً، مغسولاً تماماً، طافياً حسبما تودي بك الظروف، وأنا متشبِّث بك، يجعل تواصلنا قريباً جداً. نحن الآن في غاية القرب بعضنا من بعض، أنت جزء مني فعلاً، إلى درجةٍ يبدو لي معها بأنك لو لم تعدْ موجوداً، لكأنَّ قطعة مني شخصياً قد تصبح نسيجاً ميتاً.

ما الأمر الأكثر إدهاشاً من قوة مقاومتك وعنادي؟ إنّ هؤلاء المشابهين لي، الذين سوف يجاهدون في سبيل مساعدتك على قطع تلك الرحلة، بالرغم من كونهم خطّائين، عليهم حتماً الإيحاء ببعض الثقة. أقول لنفسي دوماً إنه ربما بفضل أناس مثلي، متواضعين ومتوارين، لكنهم متشبّثون برأيهم، يوصلون بالنتيجة أناساً مثلك إلى البقاء والاستمرار. يبدو ألا أحد يهتمّ بتوضيح ذلك. قد يكون هذا مهماً مع ذلك. بالنسبة لي، لم أفهم جيداً قط كيف تجري هذه الأمور.

أتساءل من حين إلى آخر عمّا سوف تصبح عليه حالك في ما بعد، من دوني... أين ستصل؟ أين ستفشل؟ بعضهم، وهم الذين ذهبوا في هذه الرحلة ضمن الشروط الأفضل، محوطين باحترام الناس الأكثر تصنُّعاً، انتهى بهم الأمر إلى تلقّف الأطفال لهم، ومذّاك وهم يعملون في خدمتهم لتسليتهم. مع ذلك فقد يحدث أن يستولي الراشدون من جديد بشكل مفاجئ عليهم لبعض الوقت. لكنّ هذا نادراً جداً ما يحدث.

والآخرون، المبعَدون من كل مكان لزمن طويل، يعودون فجأةً، بعد مُضِيّ عديد من السنوات، للاستقرار حول طاولات المقاهي، متبخترين في

الصالونات. هؤلاء، يبدو لي أن فرص اختفائهم تماماً، يوماً ما، قليلة. تبدو لي حالتهم جيدة.

«وثمار الذهب؟ هل تذكرها؟» هذا الجهد الذي يجب بذله في كل مرّة... لا أتوصل إلى اتخاذ القرار... إنه أنْ يشعر المرء، من دون شك، بمثل ما يجري في داخله، بأن الآليّة تبدأ تعمل... مثل ساعة المنبِّه التي جرى تعييرها، مثل ساعة الحائط منتظمة العيار... أنتظر انطلاق رنينها.

حتى في ما مضى، إبّان الزمن الذي كان فيه مجرّد لفظ اسمك يستدعي فوراً دويّ صيحات الإعجاب، فلا شيء سوى معرفة ذلك بشكل مؤكّد، سوى انتظاره، كان يرمي بي في نوع من الغضب. كنت أرغب في هزّهم بقوّة من أجل تخطئتهم، من أجل إجبارهم على التقاط الصعوبات... لكن الآن...

«وثمار الذهب؟» ها هي ذي. يبدأ نظام الساعات يتحرَّك... «آه لأنّ...» إنها أصوات الأزيز الأولى... «لأنّ... أما تزالون تبحثون فيها...» ترنّ الدقّات... «أما تزالون تبحثون فيها... في ثمار الذهب؟».

* * *

د. ريم منصور الأطرش

باحثة وروائية ومترجمة. حازت على الدكتوراه من جامعة ليون الثانية (فرنسا). أطروحتها بعنوان:

«مشاكل الترجمة وأسبابها عند المتعلّمين الناطقين بالعربية وبالفرنسية، وطرق عملية لحلها»

من أعمالها:

- «ماهي العلمانية»
- ١١ أيلول /سبتمبر

ومن رواياتها:

- «إلى آخر الزمان».
- «حرير الروح الشآم».
- «شآم الياسمين».

ومن مؤلفاتها:

- الحرير في سورية: لواء اسكندرون، سورية ولبنان.

الطبعة الأولى / ٢٠١٨م

كلمة الغلاف

بعد عام على نشرها، حازتْ رواية «ثمار الذهب»، للأديبة الفرنسية ناتالي سارّوت (١٩٠٠– ١٩٩٩)، على الجائزة العالمية للأدب، في العام ١٩٦٤. كانت الأديبة ناتالي سارّوت من رائدات الموجة الجديدة في الأدب الفرنسي.

يمكن القول إنّ هذه الرواية قد جسّدت التجريد في الأدب الفرنسي. ليس ثمّة من حبكة، في الرواية، أما الشخصيات، فهي مُغفَلة الاسماء؛ والمتخَيَّل فيها متداخِل بالواقعيّ، ولا انفصام بينهما.

في المشاهد الأربعة عشر التي تتألّف منها الرواية، تتحدّث شخصيات، مُغفَلة الأسماء، عن كتاب بعنوان «ثمار الذهب». تجري الحوارات بينها في جوّ لا وضوح فيه، لكنها تتوضّح، شيئاً فشيئاً، عبر حوارات ثانوية تأخذ شكل الحكايات أو شكل الحالات المتخَيَّلة.

ليس ثمّة من راوٍ في هذه الرواية كما لا يوجد فيها شخصية أساسية ولا حبكة تجمع بين هذه المشاهد المتفرّقة.

وفقاً لما قالتْه الأديبة ناتالي سارّوت عن روايتها هذه، فإنها تتميّز برؤية هندسية تأخذ شكل «المنحني الصاعد، ثم المنحني الهابط»!